الأحباس ودورها في تنمية المؤسسات التعليمية بالمغرب المريني والسعدي (القرنان الثامن والتاسع الهجريين)

✍:د. محمد الشريف/ جامعة عبد الملك السعدي- كلية الآداب والعلوم الإنسانية -تطوان/ المغرب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الوقف يعد أحد مظاهر الحضارة الإسلامية، لما لأبعاده الروحية ، وتعبيراته الثقافية، وإجراءاته الاقتصادية، وتعاملاته الاجتماعية، من أثر في صيرورة المجتمعات الإسلامية قديما وحديثا.

وقد جسدت مؤسسة الوقف في ظل الحضارة الإسلامية قيَم التضامن الاجتماعي ورعاية حقوق الضعفاء والإنفاق في أوجه البرّ. وكانت تمثل موردا قارا يفيض بالخير على كثير من المؤسسات والمرافق الاجتماعية. وبفضل تلك الموارد القارة قامت المساجد والمرافق الاجتماعية والمعمارية التابعة لها، وشيّدت المدارس والمكتبات ودور العلم ، وأقيمت بها المرافق اللازمة لراحة العلماء وطلاب العلم، وأنشئت المستشفيات والمصحات والصيدليات، وألحقت بها المدارس أو الأجنحة الخاصة لتدريس طلاب علوم الطب.

والمتصفح لتاريخ هذه المؤسسة العظيمة وآثارها وأبعادها الاجتماعية والحضارية الجليلة يقف وقفة إجلال وإعجاب أمام فضلها الكبير في تشييد صرح الحضارة الإسلامية[1].

وقد أوضحت جلّ الدراسات الحديثة التي تناولت الحياة العلمية في الدولة الإسلامية أن أموال الوقف أسهمت بنصيب وافر في تنمية التعليم وازدهار الحركة العلمية في الحضارة الإسلامية.

ويحظي الوقف الإسلامي باهتمام متزايد من جانب العديد من الباحثين والمؤرخين والدارسين في البلدان العربية وحتى الأوربية، فقد نشرت كتب ومؤلفات عديدة اهتمت بمختلف جوانب الوقف الإسلامي وأشكاله ومجالاته، كما عقدت مؤتمرات وندوات علمية حوله في عدد من البلدان، أكدت توصياتها في غالب الأحيان على ضرورة الاهتمام بالوقف وإعادة الاعتبار إليه في المجتمع، خاصة بعد التخبط والفشل في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في عدد من الدول العربية والإسلامية في العقود الأخيرة، وبروز الحاجة من جديد إلى الوقف وتفعيل دوره التنموي الذي اضطلع به في العصور السابقة من خلال العديد من الخدمات التي قدمها للمجتمع، والحلول التي عالج بها جملة من المشكلات التي اعترضت المجتمعات الإسلامية.   ومن بين المجالات التي طبعها الوقف بميسمه في تاريخ المجتمعات الإسلامية هناك المجال التعليمي والثقافي.

---

[1]- الدكتور أحمد أبو زيد، "**فضل الأوقاف في بناء الحضارة**"، مجلة التاريخ العربي (الرباط)، عدد 13، ص 48

ونود في هذه الورقة تقديم مثال ملموس لدور الوقف في تنمية المؤسسات العلمية وتشجيعها بالمغرب على عهد المرينيين والسعديين (من القرن الثامن إلى القرن العاشر الهجريين) وذلك من خلال أربعة محاور، هي:

التحبيس على المدارس

تحبيس الكتب

تحبيس المكتبات

- تحبيس الكراسي العلمية

***

لا تسعفنا المصادر التاريخية بالمعلومات الكافية والضرورية لرصد تطوّر مسيرة الأحباس بالمغرب قبل العهد المَريني، ولعل ذلك راجع لعدم اهتمام الدول السابقة ل هذا العهد بوضع سجلات تقيد فيها الأوقاف ورباعها[2].

ولعل أولى الإشارات المصدرية إلى قضية التحبيس [3] على المنشآت الفكرية والاجتماعية بفاس تعود إلى العصر الإدريسي (172-375 هـ). فالمصادر [4] تذكر أنه لما كثر الوافدون على مدينة فاس في أيام الأمير يحيى بن محمد بن إدريس (234-245 هـ) قامت فاطمة أم البنين الفهرية وأختها مريم بتحبيس الأموال التي ورثتاها عن أبيهما ، الفقيه أبي عبد الله محمد الفهري القيرواني ، من أجل بناء جامعيْ "القرويين"، و"الأندلس"، سنة 245 هـ/ 850م.

وفي عصر الموحدين كانت معظم مباني ومنشآت فاس مِلكا لأوقاف القرَوِيّين، غير أن هذه المنشآت تعرّضت للتلف والدّمار أيام الفتن والمجاعات التي عرفتها المدينة ما بين 618 و 637 هـ، حيث قلّ الإنفاق على الجامع [5]. ولما ظهرت السلطة المرينية وجدت أمامها ثروة وقفيّة هائلة، ونواة خصبة خلفها الموحّدون. لكن بني مرين لم يقتصروا على استعادة الحياة لذلك السجلّ، ولكن أثروْه بما أغذقوا عليه من أملاك أنشأوها ، ورباع في سائر جهات المغرب ، وخاصة مدينة فاس. فتنوعت الأوقاف عامة وتفرقت إلى عدة شعب في كثير من مناطق المغرب. فقد جاء عند الجزنائي (ق. 8 هـ) أن غلات أوقاف جامع القرويين على عهد المرينيين ناهزت في بعض الأعوام عشرة آلاف دينار فضية [6]، وذكر من جملة الرّباع التي حبسها السلطان أبو يعقوب (656-685 هـ/ 1258-1286م) فندقا من أهم الفنادق التي تحتضنها مدينة فاس، ونعني به فندق الشماعين، وقد تزايدت

---

[2]- محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب بالرباط، الرباط، 1981، ج 1/ 130

[3]- التحبيس من المصطلحات التي عبر بها المالكيون في المغرب والأندلس عن الوقف، إلى جانب التسبيل والتصدق والتأبيد والتحريم. وقد جمعت هذه المصطلحات في وقفية ابن خلدون التي أثبتها في الجزء الخامس من كتابه "العبر" الذي حبسه على خزانة القرويين. (أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، **معجم مصطلحات المخطوط العربي(قاموس كوديكولوجي)**، ط 2، 2004، ص338

[4]- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس** ط. الرباط، 1973، ص 54-55؛ الجزنائي، **جنى زهرة الآس** ، الرباط، 1973، ص45-46

[5]- نفسه

[6]-علي الجزنائي، **جنى جنة الآس في بناء مدينة فاس** ، الرباط، 1973، ص 18-95-196؛ د. عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، دار الكتاب اللبناني، ط. 1، ج 2/ 456

أوقاف القرويين فيما بعد، فأفاضت منها على سائر مساجد مدينة فاس ومنشآتها الاجتماعية، إلى درجة أن الأوقاف الزائدة توجهت إلى المسجد الأقصى بالقدس، وحتى الحرمين الشريفين: مكة المكرمة والمدينة[7]. وغدت ميزانية جامع القرويين تنافس ميزانية الدولة، بل إن الدولة استقرضت من خزينتها في كثير من الأحيان [8]. ولهذا يجمع الدارسون على أن الوقف عرف نهضة كبرى في العصر المريني، حيث اهتم سلاطين بني مرين ببناء المؤسسات الوقفية الاجتماعية إلى جانب المؤسسات الدينية والثقافية.

1- التحبيس على المدارس:

إذا كان جل الباحثين يتفقون على أن "المدرسة" كمؤسسة تجمع بين التعليم والإيواء، قد ظهرت بالمشرق في القرن الخامس الهجري، فإنه يوجد اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ ظهور المدارس بالمغرب. يؤكد ابن مرزوق الخطيب أن " **إنشاء المدارس في المغرب كان غير معروف** حتى أنشأ مولانا المجاهد [السلطان المريني يعقوب ابن عبد الحق عام 670 هـ] مدرسة الحلفاويين بمدينة فاس "[9]، ويقول المقري: " **ليس لأهل الأندلس مدارس** تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في **المساجد** بأجرة، فالعالم منهم بارع لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، **وينفق من عنده حتى يعلم** "[10]، وهذا ابن جبير، في سنة 580 هـ يوصي الطلاب الفقراء ببلاد الغرب الإسلامي للذهاب إلى مدارس المشرق قائلا: " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، وإنما المخاطب كل ذي همة، يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك"[11].

ومن خلال تصفح المصادر المتاحة يتّضح أن المدرسة وصلت المغرب بعد قرنين من ظهورها بالمشرق، وبالضبط سنة 635 هـ، على يد أحد الخواص من علماء مدينة سبتة، وهو أبو الحسن الشّاري (ت. 649 هـ) فقد بنى من ماله مدرسة – ستسمى **بالمدرسة الشارية**- سنة 635 هـ، وأوقف عليها "من خيار أملاكه وجيد رباعه وقفا... **سالكا في ذلك طريقة أهل المشرق** "[12]، وحبّس عليها خزانة للكتب مشتملة على مصنفات في مختلف العلوم. تعدّ " أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم" [13]، وكانت تضم جناحا

---

[7]- د. عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، ج 1، 1973، ص 455؛ الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج 3، ص 131

[8] - التازي، **جامع القرويين** م. س. 2/ 455

[9]- محمد بن مرزوق الخطيب (ت. 1379م)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1981، ص 405 وما بعدها

[10]- أحمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج7، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1968، ج1/ص 220

[11]- ابن جبير محمد، **رحلة ابن جبير**، بيروت، 1981، ص 252

[12]- ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة** السفر 8 تحقيق د. محمد بنشريفة، الدار البيضاء، 1983، ص 197

[13]- محمد بن قاسم الأنصاري السبتي، **اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار** ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 3، 1996، ص 29

لإيواء الطلبة، وبقعة محبّسة على من يموت من طلبتها [14]. والجدير بالذكر أن الدراسة بهذه المدرسة لم تكن مقصورة على الذكور وحدهم، بل شاركهم الإناث، فهذا صاحب كتاب "اختصار الأخبار" يذكر ضمن قبور البقعة المحبّسة على دفن من يموت من طلبة المدرسة الشارية "قبر العجوز المسنة أم المجد مريم"، وهي بنت الشاري[15].

والواقع أن البحث التاريخي المغربي قد أثبت وجود هياكل سكنية- تعليمية بالمغرب الأقصى قبل قدوم المرينيين، خصوصا وأنه لم يكن للهياكل المرينية أن تنطلق فجأة من الفراغ المطلق، أو من مجرد تقليد عفوي مرتجل للمؤسسات المشرقية النائية [16]. فقد أِشارت بعض المصادر إلى بناء مدارس قبل العهد المريني بشمال المغرب وجنوبه ، ومراكز إشعاعية في حقلي الفكر والثقافة، دأبت على إمداد طلاب المعرفة بكثير من ألوان العطاء العلمي والمعرفي، وكانت تزود هذه المراكز من السلطة القائمة بالبلاد بأموال كثيرة متعددة المصادر، سواء من الأموال المتحصل عليها من جباية الزكوات والأعشار، أو من أخماس غنائم الحروب، أو من أموال الأوقاف[17].

وقد تبايت آراء المؤرخين القدامى حول أهمية الأحباس في العصر المريني، فبينما يؤكد ابن فضل الله العمري (701- 749 هـ/ 1301-1349م) الذي ترك لنا وصفا دقيقا للمغرب في القرن الثامن الهجري، أن الأوقاف عند المرينيين قليلة، " لا يقولون بها ولا يرون الصدقة على الصحيح سويّ، ولا بنيان المدارس، وقد بنى المتأخرون بها ما قل" [18]، نجد أن ابن الخطيب الذي زار المغرب وكتب بعد العمري بقليل ، يقول: إن " **أوقاف**

---

[14]-نفسه، ص 23

[15]- نفسه

[16]- محمد القبلي، " **قضية المدارس المرينية: ملاحظات وتأملات** "، ضمن كتاب: **في النهضة والتراكم** .. (دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ محمد المنوني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء1986، ص 49

-Ahmed Saleh Ettahiri, *« Locaux d'enseignement au Maroc islamique : genèse et rôle de la medersa »*, Revue Amal, Casablanca, N° 28-29, 2003, pp. 38-58

[17]- وتتمثل هذه المراكز خاصة في:

1. مدرسة وكاك بن زلو اللمطي السوسي ، الذي "بنى دارا سماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن" .(ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق،الرباط، 1984، ص 89)

2. مدرسة عبد الله بن ياسين أو رباطه في الصحراء (أسسه حوالي سنة 430 هـ.) وكان عبد الله بن ياسين يغدق على طلبة العلم وعلى العلماء من خمس الغنائم التي يغنمها من المعارك التي يخوضها ضد القبائل غير المؤمنة... إلى جانب الزكوات والأعشار التي يرسلها إليهم، إعانة لهم على تلقي العلوم

مدرسة الصابرين، أو مدرسة "بومدين" في فاس، أسسها يوسف بن تاشفين بعد دخوله مدينة فاس حوالي سنة 462 هـ/ 1096م، وقد ظلت هذه المدرسة تقوم بمهمتها في إيواء طلبة العلم وتثقيفهم طوال أيام المرابطين، فلما أفل نجم هذه الدولة، واحتل الموحدون المدينة سنة 540 هـ/ 1145م كان طلبة المدرسة ممن بادر إلى مقاومة الموحدين واستمروا معتصمين يقاومون ويصابرون، ولكنهم في نهاية الأمر، أصبحوا فريسة بين مخالب خصومهم، فقتلوا بأجمعهم، وهكذا سميت هذه المدرسة مدرسة الصابرين، وإن أطلالها ما تزال ماثلة إلى الآن قريبا من المنطقة التي كانت تعرف في القديم باسم "حومة الكغاطين"، وأن الوصايا الوقفية القديمة، لتدل دلالة واضحة على أنها كانت ملاذا للواردين عليها من سائر الجهات للالتزام بها على نفقة الأحباس، ولا شك أن لمدرسة الصابرين نظائر هنا وهناك، مما اختفى أثره وذهبت معالمه.

بيد أن تلك المؤسسات العلمية اندثرت ولم يبق منها أثر. (انظر: د. عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، 1/ 122، 144؛ المعطيات ذاتها عند د. السعيد بوركبة، **دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية**، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، 1996، ج 1/ 60-61)

- وفي العصر الموحدي نجد ثلاث مدارس بمراكش، إثنتان عامتان، وثالثة خاصة بأبنائه وأبناء أسرته. (محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، دار توبقال للنشر، الرباط، ط 1، 1989، ص 203)

[18]- أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر)**، تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء، 1988، ص 106-107

فاس جارية"[19]. فكيف يمكننا فهم هذا التناقض بين الرأيين؟ هل يمكن أن يكون ظهور المدارس قد غير الأمر من قلة الأوقاف إلى كثرتها. إن ستة مدارس بنيت بفاس في فترة وجيزة محصورة بين 721- و 756 هـ / 1321 – 1356م.

تعود أقدم شهادة لدينا حول تحبيس المرينيين على المؤسسات التعليمية إلى السلطان أبي يوسف يعقوب (651-685 هـ/ 1253-86م)، فقد بنى عدة مرافق ومؤسسات عمومية بفاس، من بينها مدرسة "الصفارين" - وتسمى كذلك مدرسة "الحلفاويين"- لطلبة العلم، "بناها ... قبلة جامع القرويين، وأجرى فيها ماء العين وأسكنها بالطلبة والمقرئين وأجرى عليهم المرتبات من جزية اليهود، لعنهم الله" [20]. وحبس عليها 13 حملا من الكتب التي بعثها له الملك شانجة القشتالي ، إثر صلح بين الطرفين سنة 684 هـ/ 1285م[21]. وتنسب لهذا الأمير بناء مدارس عديدة بمراكش ومكناسة[22].

وبعد هذه المدارس المرينية الأولى ، التي جاءت بعد أربعين سنة من تأسيس المدرسة الشارية بسبتة، توقف المشروع نصف قرن تقريبا، بسبب المعارضة القوية لفقهاء المدينة له[23]، ولم يستأنف من جديد إلا سنة 721 هـ وبقي حيويا إلى وفاة أبي عنان سنة 760 هـ. فقد شيد أبو سعيد عثمان أربع مدارس كلها بفاس ، باستثناء واحدة أسسها بتازة، بينما قام ابنه أبو الحسن ببناء إحدى عشرة مؤسسة موزعة عبر مناطق المغرب وبتلمسان. أما أبو عنان، فمن المعروف أنه اكتفى بإقامة مدرسة بمكناس وأخرى بفاس اشتهرت باسم المدرسة البوعنانية. لذلك فإن الأغلبية الساحقة من المدارس المرينية قد أنشأت في ظرف من الزمن لا يتعدى ستا وثلاثين سنة، قبل أن يتوقف المشروع نهائيا عن النمو والاتساع من حيث الكمّ على الأقل [24]. ويكاد يجمع الدارسون على أن بناء المرينيين للمدارس يأتي في سياق نصرة المذهب المالكي وإعادة الاعتبار لعلمائه وفقهائه بعد الابتلاءات التي توالت عليهم خلال عهد الموحدين، كما وظفتْ المدارس كدعامة لتوطيد أركان السلطة وتكوين أطرها الإدارية والعلمية [25]، فالمدرسة المرينية كانت مؤسسات سلطانية النشأة والتمويل والتوجيه[26].

بيد أن الهدف الأساس من وراء بناء المدارس هو إحياء العلم وتوفير الظروف المعيشية المواتية لطلابه، وهذا ما نجده واضحا في أغلب وقفيات التحبيس على المدارس. فقد جاء مثلا في وقفية تحبيس المدرسة البوعنانية بفاس، التي أخذت إسمها من إسم مؤسسها أبي

---

[19]- ابن الخطيب السلماني، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار** ، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة، منشورات اللجنة المشتركة المغربية الإماراتية لنشر التراث الإسلامي، الدار البيضاء، 1977، ص 175

[20]- الجزنائي، **جنى زهرة الآس**، ص 162-163

[21]- ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، 363

[22]- نفسه، 298، مجهول، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** ، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 162-163؛ ابن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، الرباط، 1951، ص 14

[23]- حول أسباب معارضة الفقهاء للمدارس المرينية يراجع، محمد القبلي، **قضية المدارس المرينية: ملاحظات وتأملات** ، م.س.، ص 55-56، الحسين أسكان، **تاريخ التعليم بالمغرب**، م.س. 64-65، مصطفى نشاط، **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني**، منشورات كلية الآداب وجدة، وجدة، 2003، ص 15-16

[24]- محمد القبلي، **قضية المدارس**، م.س.، ص 56

[25] -Maya Shatzmeller, « **Waqf khayri in Fourteenth Century Fez : Legal, Social and Economic Aspects** », Anaquel de Estudios Arabes, N°2, 1991, pp. 193214

[26]- **تاريخ مدينة فاس**، إشراف محمد مزين، ط 1، فاس، 2010، ص 123؛ مصطفى نشاط، م.س. ص 17 يقول : " إن المدارس شكلت إحدى الأدوات الهامة التي عولت عليها السلطة المرينية في بناء توازناتها الداخلية بتخريجها لأطر مرتبطة مباشرة بالتوجه المريني"

عنان المريني (751-758 هـ/ 1350-1356م)، وتعرف في بعض الكتابات بالمتوكلية: " أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السنية المسماة بالمتوكلية المؤسسة على تقوى من الله ورضوان المعدة لتدريس العلم وإقراء القرآن... قصد أيده الله تعالى ببنائها وجه الله تعالى في **إحياء رسوم العلوم، وتجديد العناية بالمنقول والمفهوم** ، ابتغاء حسن الثواب على تخليد أعمال البر وإجراء الصدقات الباقية بقاء الدهر... **حبس أيده الله على هذه المدرسة إرفاقا لطلبة العلم وإرفادا** ، وإعانة لهم على طلبه وإسعادا" [27]. وفي نقيشة التحبيس على جامع العباد بتلمسان مع المدرسة المتصلة بغربيّه، والتي شيدها السلطان أبو الحسن ، نقرأ فيها أنه "حبّس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه"[28].

ولعل أوضح نص تاريخي يوضح هذه الترابط بين إنشاء المدارس وتنمية التعليم والتحصيل العلمي، وتوفير الظروف المواتية لطلاب العلم، هو الذي ساقه ابن مرزوق الخطيب، ومهّد به لكلامه عن إنشاء السلطان أبي الحسن للمدارس في ربوع المغرب، يقول: " ولا يحفظ العلم إلا بمعونة طلابه على طلبه ، وبعثهم على تعليمه وتعلمه، فإن تعليمه وتعلمه يمنعان من التسبب ويقطعان عن الطلب، فإذا حصلت المعونة وكفيت المؤونة، ارتفعت المعذرة وانقطعت الحجة" [29] ، وبعد أن يستعرض المدارس التي أنشأها السلطان "في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط"، يصف زخرفتها وما أنفقه من أموال عليها، "مع ما ينضم إلى ذلك من **الأحباس التي تقام بها ويحفظ بها الوضع**، مما يصلح به ويبنى ويجرى في المرتبات على الطلبة والعونة والقيم والبواب والمؤذن والإمام والناظر والشهود والخدام ويوفر من ذلك. وهذا يرشدك إلى قدر ما يحتاج إليه في كل مدرسة من هذه المدارس، هذا مع ما حبس في جلها من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة"، ويختم ابن مرزوق هذا الفصل بقوله: " فلا جرم كثر بسبب ذلك طلب العلم وعدد أهله"[30]

لقد اتجه المرينيون، أولَ ما اتجهوا، إلى بناء المدارس الداخلية لتقبل المزيد من طلاب العلم من سائر جهات المملكة، خاصة وأن المدارس الموحديّة لم تعد صالحة لنشر المبادىء التي قامت عليها الدولة المرينية الجديدة. ويمكن القول إن بناء المدارس وإلحاق خزائن الكتب بأكثرها والإنفاق على العلم والطلبة يأتي في مقدمة عوامل الازدهار الثقافي في العصر المريني الأول [31]، ولا زال بعض هذه المدارس قائما كآثار فنية أصيلة تشهد بروعة الفن المريني[32].

---

[27] Bel, A., « Inscriptions arabes de Fès », in *Journal asiatique*, IIème série, 1918 t. 12, p. -363 365.

[28] -Brosselard, « Inscriptions arabes de Tlemcen », Revue Africaine, N° 18, 1859, pp.410-415-

[29]- ابن مرزوق، **المسند** ، م.س. 405

[30]- نفسه، ص 206-207

[31]- محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1996، 234

[32]- انظر مثلا: نعيمة الحضري، **" المدارس المرينية بفاس: دراسة تاريخية ومعمارية "**، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 38، 2006، ص 375-397

وتعتمد المدارس في أداء وظيفتها التعليمية على الأحباس الموقوفة عليها، والتي يخصص مدخولها للإنفاق على الطلاب الغرباء والفقراء المسجلين بها، وتوفر منها مئونتهم ولباسهم السنوي، كما تتوفر بنايتها على غرف لإيواء الطلاب الغرباء، وتؤدي منها أجور المدرسين والقائمين على تسييرها، وتشمل أحباسها خزانة من الكتب العلمية الموقوفة لفائدة الطلاب المنتمين إليها. فالمدرسة بفضل أحباسها تعفي الطلاب من تحمل مصاريف أربعة أمور على الأقل، كانوا مضطرين لتحملها قبل ظهور المدرسة، وهي: أجرة المدرسين، تكاليف المبيت والأكل واللباس، وشراء الكتب الدراسية أو كرائها لنسخها[33]، بل يكون ضمن أحباسها أحيانا مقبرة لدفن من يتوفى من طلابها، كما هو الشأن بأقدم مدرسة بسبتة[34].

ونرى من الفائدة أن ننقل هما النص الكامل لرخامة التحبيس المغروزة في جدار مدرسة العطارين التي شيدها أبو سعيد المريني سنة 723 هـ ، لنكون فكرة عن جانب من الحوالات الوقفية التي كانت معروفة في العهد المريني:

" الحمد لله رب العالمين، رافع درجات العالِمين، ومجزل ثواب العامِلين حمدا يكون كِفاء لآلائه، وأداء لواجب شكر نعمائه، متصلا إلى يوم الدين، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد. وبعد، فهذا ما حبس وأمر بتخطيطه وإنشائه مولانا الإمام أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبو سعيد ابن مولانا الإمام أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، جعلهم الله من أئمة المتقين، برسم المدرسة التي أتم بناءها في عام خمسة وعشرين وسبع مئة، وهي المقابلة لسماط العطارين من فاس القرويين، فمن ذلك ثلاثة عشر حانوتا متصلة بباب الفرج، ومن ذلك دار الصابون مع الحوانيت الثلاثة المخرجة منها بالشراطين، والدار والمصرية وأربعة حوانيت بالجوطية، وأربع حوانيت بعين علون، وهي التي أعلاها مستأجر للحبس المذكور، وأربع حوانيت مع الطراز المحمل عليهم بعين إيصليتن، وثلاثة حوانيت مع المصرية المحملة عليهم بالصفارين القدماء، وسبعة أثمان فندق الحدودي مع الأربعة حوانيت المخرجة منه بالدرب الطويل، وتربيعة ابن [جيدة] بالبليدة، والحانوت الرابع بالعطارين عن يمين المار من المدرسة، والحانوت الثانية بالقيسرية، وعن يسار الداخل من الحرارين والحانونت بالسبطريين، وهي الأولى عن يسار الخارج من فندق الزيت، والحانوت الثالثة عن يسار الخارج من الجزارين، وبيت أرحى مصالة بشيبوبة والحجر الثاني مع القاعة المتصلة به، ونصف شائع بقاعة الزرع بالبيت الموالي لحمام الزيات، والفرن بجرنز، ودار تلاصق فرن الكوشة، ودار علّو بالصباغين، ودار علّو بجزاء ابن زگّون، ودار ببرزخ تلاصق دار أمن الله، ومصرية بعين الخيل محملة على الصابة، ونصف فندق الرضّاع شرق جامع القرويين"[35].

---

[33]- الحسين أسكان، " **الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط** "، مجلة أمل: (الدار البيضاء)، عدد مزدوج 28-29 خاص بالتعليم والمسألة التعليمية عبر التاريخ،، ص 18-19

[34]- محمد الأنصاري السبتي، **اختصار الأخبار** ، **م.س.**، ص 21

[35] Bel, A., « Inscriptions arabes de Fès », in *Journal asiatique*, 11ème série, 1918, t. 12, p. 198-197.

وقد ذكرت جوالة المدارس القديمة بفاس جردا لأوقاف هذه المدرسة فأوصلتها إلى 51 ما بين حوانيت وواجب رحى أو فيض ماء[36].
ولقد ضمّت جميع المدارس المرينية رخامات التحبيس التي تثبت فيها لائحة أو بيان بأسماء العقارات المحبسة عليها، من دور وحوانيت ومصانع وجنات ومزارع بخارج البلد[37]. فكان إنشاء أي مدرسة لا بد وأن يواكبه وقف ثابت يفي بمتطلباتها ومتطلبات طلابها وأساتذتها. وهذا الثبات هو الذي ساهم في تثبيت أركان المدرسة ومكنها من القيام برسالتها، فلم تكن حياة المدرسة وغيرها من المؤسسات التعليمية رهنًا بحياة مؤسسها، إذ إن في الوقف ما يضمن استمرارها حتى بعد وفاته.
لقد ساهمت المدارس – نظرا لمجانية التدريس فيها- في نشر التعليم بين فئات اجتماعية واسعة، حضرية وبدوية، وفي جعله في متناول أكبر عدد ممكن من الرعية، وخاصة الفقراء منهم، وخففت من حدة التفاوت الثقافي والاجتماعي بين المخزن والرعية، وأصبح الحكام لا يستنكفون من الذهاب للمدارس وحضور حلقات العلم بها بجانب الطلاب، كما فعل أبو عنان الذي كان يحضر أحيانا دروس صحيح مسلم في الحديث بمدرسته التي أسسها بفاس[38].
ومن المعلوم أن أحباس المد ارس كغيرها من الأوقاف أصلها أملاك شخصية للمحبسين، سواء كانوا من الرعايا أو من الحكام. ولذلك وجد من الفقهاء من تحفظوا من التدريس بالمدارس بسبب تشددهم بخصوص تحبيسات الملوك والحكام، بحكم "استغراق ذمتهم" [39] كما يقولون، ولكون أموالهم مغصوبة، والمورد الوحيد الحلال ببيت المال في نظر الفقهاء هو جزية اليهود أو غنائم الروم. وهذا ما يفسر أن "إجراء المرتبات على الطلاب والمقرئين" بأول مدرسة مرينية بفاس كان "من جزية اليهود لعنهم الله"، على حد تعبير صاحب "الذخيرة".[40] ، كما وجد من العلماء من انتقد سياسة التعليم بالمدارس، فقد ذهب الآبلي – شيخ ابن خلدون- إلى القول: " إنما أفسد العلم كثرة التآليف [= يقصد المختصرات] **وأذهبه بنيان المدارس** "، ويفصل المقري هذا الرأي بقوله: " وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم... وأما البناء **فلأنه يجذب الطلبة لما فيه من مرتب الجرايات، فيقبل بهم على من يعينه أهل الرئاسة للإجراء والإقراء منهم أو**

---

[36]- السعيد بوركبة، **دور الوقف**، م.س.، 1/ 91
[37]- انظر نماذج من ذلك في الملحق رقم 1
[38]- الحسين أسكان، **تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2004، م.س.، ص 73
[39]- إن مصطلح مستغرق الذمة – حسب نوازل الونشريسي المعيار المعرب- يضم في جنبيه: الملوك والأمراء والولاة والعمال والمشتغلين بخدمة المخزن والجباة، وأهل العداء والظلم الذين لهم استطالة، وأرباب الظهير، وأهل الاستطالة في الأموال والاستبداد بها. فقد أجمعت فتاوى فقهاء المغرب على أن هؤلاء- كما جاء في فتوى فقيه فاس عبد الله العبدوسي-" **لا تصح تبرعاتهم وتحبيساتهم** وهباتهم، وصدقاتهم، إلى غير ذلك، لا على أولادهم ولا على غيرهم من قرابتهم أو غيرهم من أصدقائهم، فإن وقفوا على أحد ممن ذكرنا لم ينفذ وقفهم، وحرم على من وقف عليه تناوله لهذا الوقف" (انظر : أحمد الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب** ، خرجه جماعة من العلماء بإشراف د. محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف، بيروت، 1981، ج 7/ ص 73-82-174-177-184-188-214-216-217-237-266-278-294-296-297-306-308-310-312-335-472...) وانظر د. جاسم العبودي، "**معلومات مهمة عن الأحباس من خلال : المعيار المُعرب للونشريشي** "، مجلة دعوة الحق، العدد 338، السنة التاسعة والثلاثون، 1998،
[40]- **الذخيرة السنية**، م.س.، ص 162-163

ممن يرضى لنفسه دخوله في حكمهم، ويصرفهم عن أهل العلم حقيقة، الذين لا يدعون لذلك، وإن دُعوا لم يجيبوا، وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم"[41]
كما أن المشاكل الخطيرة التي أصبح يتخبط فيها المغرب منذ اغتيال أبي عنان المريني وتفكك السلطة الوطاسية أثرت بشكل كبير على المدارس. ويعلل الحسن الوزان تأخر العلوم والآداب في مطلع القرن 10 هـ/ 16م بفاس وسائر بلاد شمال افريقيا **بتخريب أوقاف المدارس والمعاهد العلمية** ، واستيلاء السلاطين المتأخرة من العهد المريني والعهد الوطاسي على مستفاد ما تبقى منها عن طريق سلفات لا تُردّ أبدا، مع العلم أن ريع أوقاف المدارس بفاس فيما سبق كان يغطي نفقات كل طالب لمدة سبع سنوات، سواء من حيث السكن أو الطعام أو الكسوة، فلم يبق في زمن الحسن الوزان غير السكنى للطلبة وأجور بسيطة للأساتذة، وبذلك قلّ عددهم وقلت معه الرغبة في الدرس والتحصيل.
ويؤكد أحمد الونشريسي (توفي 914 هـ) - وهو معاصر لأواخر الوطاسيين وبداية السعديين- هذه الوضعية التي آلت إليها المدارس ، حيث أفرغت بعض بيوتها نتيجة لصعوبة تنفيذ شروط المحبسين [42] وتحويل بعضها للسكنى [43]، مما انعكس سلبا على ظروف عيش الطلبة[44].
ولما تمكن السعديون من إعادة الوحدة للبلاد وإقامة حكومة قوية، انعكس ذلك على مختلف مظاهر الحياة الأمنية والمعاشية والفكرية، وقد يكون من حسن طالع المدارس في هذا العهد أن السعديين كانوا – قبل خوضهم في السياسة- فقهاء وأدباء ومدرسين، فأولوا هذا الجانب عناية خاصة[45].
وهكذا انصب اهتمامهم منذ البداية فيما شيدوه بإقليم سوس كمدينة المحمدية (تارودانت حاليا) وقرية تييوت القريبة منها، وواحة أقا بأقصى الجنوب، بالإضافة إلى مدارس بدوية كبرى كالمدرسة البونعمانية في سوس، ومدرسة سكتانة بالأطلس الكبير [46]، لكن أروع ما أنجزه السعديون هو إعادة بناء مدرسة بن يوسف العظيمة بمراكش، وقد شيدها عبد الله الغالب على أنقاض مدرسة مرينية قديمة، في حين تأخر انتعاش مدارس الشمال إلى النصف الثاني من القرن العاشر، بسبب تأخر انتشار النفوذ السعدي على المناطق الواقعة شمال نهر أم الربيع، فلم تستعد حيويتها إلا على يد أحمد المنصور وأبنائه[47].
ما كان لهذه المدارس أن تنمو وتزدهر لولا الجهود التي بذلها السعديون، حيث تداركوا عددا من الأوقاف التي فوتت أيام الوطاسيين، وأمكنهم استرجاعها بردها لأصلها، ونستنتج هذا من خلال بعض الإشارات الواردة في بعض ظهائرهم، منها: " اقتضى

---

[41] المقري، **نفح الطيب**، م.س.، ج 5/ص 275-276، وكذلك أحمد بابا ، **نيل الابتهاج**، القاهرة، 1351 هـ، ص 246
[42]- أحمد الونشريسي، **المعيار المعرب ، ج**، 7/ 86 (جواب للفقيه أحمد القباب)
[43]- نفسه (جواب للفقيه أبي عبد الله العبدوسي)
[44]- نفسه (جواب لأبي عبد الله بن مرزوق.
[45]- محمد حجي، **المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر** ، مجلة المناهل- المغرب، عدد 18، 1980، ص 121-122
[46]- نفسه
[47]- نفسه

اجتهادنا الإمامي أن ننشأ تحبيسا من أوله حتى نقطع أطماع الورثة" [48]، وكذلك" " فإننا رددناها (الجنان) لأصلها في الأحباس، ولأن مال الحبس لا مسامحة فيه"[49].
والمدارس التي خصصت لها أوقاف من أجل سد حاجياتها ومتطلباتها والنفقة على مجالسها العلمية في العصر السعدي هي مدارس فاس – حسب ما نملكه من وقفيات تخصها، كمدرسة العطارين، ومدرسة أبي عنان، ومدرسة الحلفاويين، ومدرسة الصهريج، بالإضافة إلى مدرسة الوادي والخصة[50].

2- تحبيس الكتب

لقد اختلف الفقهاء المسلمون حول جواز وقف الكُتُب أو عدمه [51]، ولم يثر موضوع وقف المخطوطات بالمغرب ما أثاره من الخلافات في الأقطار الإسلامية الأخرى، كما أن مبدأ "العُرف" الذي ارتكز عليه المشارقة لتشريع وقْف المخطوطات لم يكن موضوعا للنقاش بين الفقهاء المغاربة. فقد كان اتفاق الفقهاء حاصلا حينما شرع المغاربة في تحبيس المجموعات على المكتبات العمومية [52]. وقد كانت المصاحف أول الكتب التي سبّلتْ ووقفت في الإسلام للمنفعة العامة، وطلبا للأجر والثواب [53]، وتطور وقفُ الكتب فيما بعد بشكل كبير إلى درجة أننا أصبحنا نجد أحيانا مكتبات موقوفة برمتها[54].
بيد أنه يصعب الحديث عن بدايات ظاهرة تحبيس الكتب بالمغرب، لأن مصادرنا لا تفصح عن ذلك كل الإفصاح [55]. والمرجح أن وقف الكتب قديم بالمغرب، فقد ثبت أن خلفاء بني أمية بالأندلس، وعلى الأخص منهم عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم المستنصر، صاحب الخزانة المشهورة، كانوا يرسلون مجموعات من الكتب لإغناء خزانة القرويين ونشر العلم بحاضرة فاس، والطابعُ العام الذي كانت تتسم به هذه المكتبة

---

[48] وثيقة وقفية صادرة عن أحمد المنصور، مؤرخة سنة 1002 هـ، حوالات تارودانت، ص 42-43 (ذكرها د. بنعلة، **تاريخ الأوقاف إسلامية** م. س. ص 256)
[49]- وثيقة وقفية صادرة عن السلطان السعدي محمد زغودة بن المامون، مؤرخة سنة 1037 هـ (ذكرها د. بنعلة، **تاريخ الأوقاف إسلامية** م. س. ص 256)
[50]- انظر الملحق رقم2
[51]- Y. Eche, Les bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et e, Egypte au Moyen-Age, p. 68-74
حيث يوجز يوسف العش الشروط التي ظهر فيها وقف الكتب والدلائل المؤيدة أو المعارضة لهذا العمل.
وانظر كذلك، د. أحمد شوقي بنبين، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ترجمة د. مصطفى طوبي، مراكش، 2003، ص 195-197
[52]- يقول الدكتور أحمد شوقي بنبين بعض استعراضه لجملة من فتاوى علماء الغرب الإسلامي بخصوص تحبيس الكتب: " إن الوقف كان منذ البداية قاعدة فقهية مقبولة من طرف الفقهاء في المغرب". (**تاريخ خزائن الكتب**، م. س. ص 199)
[53]- علم الاكتناه العربي الإسلامي (Codicologie &Arabic Islamic Palaeography) تصنيف الدكتور قاسم السامرائي،، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ط1، 1422-2001، ص 120
[54]- فرانسوا ديروش، **المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي**، نقله إلى العربية وقدم له: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1426 هـ/2005م، ص 486
[55]- يذهب الدكتور أحمد شوقي بنبين إلى أن المغرب "لم يعرف وقف الكتب إلا في نهاية العصر المرابطي" (انظر محمد بن عبد الهادي المنوني ، **دور الكتب في ماضي المغرب** ، تقديم أحمد شوقي بنبين، منشورات الخزانة الحسنية، مراكش، 2005، ص 41، هامش 1).

يحملنا على الاعتقاد بأن الكتب المهداة من طرف الخليفتين كانت في إطار الوقف. ولهذا يحتمل أن يكون وقف الكتب في المغرب أقدم مما يظن[56].

إن أقدم إشارة حول تحبيس الكتب ترد في كتب التراجم المغربية الأندلسية متعلقة بالفقيه قاسم بن حامد الأموي (ت. 254 هـ)، الذي " سمع من العُتبي، وكان زاهدا ورعا ناسكا مع الفقر والإقلال، **وحبّس كتبه**، وكان جلها بخطه" [57]، ولكننا لا نعلم على مَن حبسها. ونفس الشيء فيما يخصّ موسى بن سليمان الأموي (ت. 293 هـ) الذي "لم يعقب"، و"**أوصى بتحبيس كتبه** على يدي علي بن الحسن"[58].

وتلقي كتب النوازل أضواء على تحبيس الكتب على طلبة العلم [59]، كما أن كتب الشروط والعقود قد أوضحت الطريقة المثلى لكتابة عقد تحبيس دواوين الكتب والمصاحف [60].

وبخصوص التحبيس على "طلبة العلم"، نعلم أن المقرىء الطليطلي، أبي عبد الله محمد بن عيسى بن فرج التجيبي المغامي (ت. 485 هـ) قد "حبّس كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة"[61]، أما أبو الحسن فرج بن أبي الحكم اليحصبي الطليطلي (ت. 440 هـ)، فلم يحبس كتبا، وإنما "**حبس داره على طلبة السنة**"[62].

وإذا كان تحبيس الكتب عادة ما يكون على عموم القراء، فإننا لا نعدم أمثلة في كتب التراجم تفيد أن التحبيس كان حتى على البنات. فخديجة بنت جعفر بن نصير بن التمار التميمي "حبست كتبا كثيرة على ابنتها"[63]، وهذا الأمر نادر الحدوث.

ويأتي المصحف الشريف دائما على رأس المجموعات الموقوفة، وقد كانت كل مجموعات المخطوطات التي يحبسها المغاربة تقريبا تضمّ نسخا من القرآن الكريم. فقد نسخ الخليفةُ الموحدي عمرُ المرتضى (المتوفى سنة 665 هـ) قرآنا في عشرة أجزاء ووقفه على خزانة مسجد ابن يوسف بمراكش. وجاء في الفقرة الأولى من وقفية هذا الخليفة للربعة القرآنية الشريفة: " حبّس هذه الربعة المباركة المشتملة على عشرة أجزاء، هذا الجزء أولها، ويحتوي عليها تابوت أبنوس بحلية نحاس مذهبة، وجملتها ثلاثة أدرع، وثلاثة مقابض، في أعلاها واحد، وفي عرضها إثنان، وأركانه معقودة بنحو الحلية

---

[56]- يوجد بخزانة القرويين: شرح الفصوص في صناعة الطب للفاربي، نسخ للناصر الأموي بقرطبة بالأندلس. ونسخ المختصر لأبي مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري لخزانة الخليفة الأموي الحكم المستنصر. انظر: عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، 1، ص 124

[57]- القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، مطبعة فضالة، د. ت. ج 4، ص 466

[58]- الخشني، **أخبار الفقهاء والمحدثين**، وضع حواشيه سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، رقم 235

[59]- انظر مثلا: ابن سهل، **وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس**، تحقيق عبد الوهاب خلاف، رقم 8، ص 65-66؛ الونشريشي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من العلماء بإشراف د. محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف، بيروت، 1981، ج 7، ص 384-387

[60] في وثائق ابن العطار، نجد الصيغة التالية: [وثيقة تحبيس خيل أو سلاح أو حلي أو **دواوين علم أو مصاحف**... وتقول في الكتب: ليستعيرها ثقات طلبة العلم للنسخ والمقابلة والدراسة" وفي المصاحف: " لتعار لمن يريد القراءة فيها" أو "فيه" إن كان واحدا، وتقول في صفة مصحفه "الجامع للقرآن الذي صفته كذا وكذا" تصف تجليده وغلافه وخطه..." (ابن العطار، **كتاب الوثائق والسجلات**، تحقيق بيدرو شالميطا وفرانسيسكو كورينطي، مدريد، 1983، ص 206-207) وانظر كذلك أحمد بن مغيث الطليطيلي (ت. 459 هـ)، **المقنع في علم الشروط**، تقديم وتحقيق فرانسيسكو خابيير أغيري ساباذا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1994، ص 326

[61]- ابن بشكوال، **كتاب الصلة**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، القسم الثاني، ترجمة رقم 1225

[62]- نفسه، ترجمة رقم 986

[63]- ابن بشكوال، **كتاب الصلة**، القسم الثاني، ترجمة رقم 1532

المذكورة... وعليه غشاء جلدا ومغالقه كلها فضة منيلة ... **حبّسها على من يقرأ فيها من المسلمين ليلا ونهارا ،** لا تمنع من قارىء فيها بالجامع المذكور **ولا تخرج منه ،** ويكون استقرارها بالبيت المعين للمصاحف المحبسة قبلها، بالقبلة، المتصل بالمحراب" [64]. وهذه أقدم صيغة وقف المخطوطات التي نتوفر عليها اليوم في المغرب وتعود إلى القرن السادس الهجري/ الثالث عشر للميلاد.

إن اهتمام المغاربة ملوكا وعلماء بوقف الكتب وتحبيسها على العموم، بلغ بهم إلى حد أن أوقفوا المصاحف الكريمة والكتب العلمية على الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى. فقد ذكر ابن أبي زرع الفاسي في "القرطاس" [65] والناصري في "الاستقصا" [66] أن السلطان أبا يعقوب يوسف المريني أمر صلحاء المغرب بالمشي إلى الحجاز، وبعث معهم مصحفا ضخما مكللا بالجواهر والياقوت، أهداه إلى الحرم المكي. وذكر ابن مرزوق في "المسند الصحيح الحسن" [67] – وكان شاهد عيان على أحوال أبي الحسن المريني- وأبو العباس المقري في "نفح الطيب" [68] وابن خلدون في "كتاب العبر" [69]، أن السلطان أبا الحسن المريني كتب ثلاثة مصاحف شريفة بيده، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، و"أوقف عليها أوقافا جليلة"، وقد رأى المقري أحد المصاحف المذكورة، وهو الذي ببيت المقدس، ومدح ربعته بأنها في غاية الصنعة [70]، وقد أورد ابن الوردي (المتوفى سنة 750 هـ) الوقفية بكاملها في الجزء الثاني من تاريخه [71]. وتضم هذه الأماكن المقدسة أيضا مجموعات قيمة حبسها عليها الخليفة السعدي المنصور الذهبي[72]

وقد اختص بعض العلماء والنّساخ من الرجال والنساء بكتابة المصاحف فقط ووقفها، فكانت ابنة الأمير عبد الرحمان الثاني، المسماة "البهاء"، المتوفاة سنة 305 هـ، تنسخ المصاحف وتحبسها[73]، ربما على المسجد الذي بنته [74]. ويقول ابن عبد الملك المراكشي، صاحب "الذيل والتكملة" عن محمد بن عبد الله الأنصاري البلنسي (المتوفي في حدود سنة 610 هـ): " وكان منقطعا إلى كتابة المصاحف، متقدما في براعة خطها، إماما في

---

[64] - محمد المنوني، **قبس من عطاء المخطوط العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991**، ص 646 . ولم يبق من هذا المصحف المكتوب في 10 أجزاء إلا أربعة أجزاء (أحمد شوقي بنبين، **تاريخ خزائن الكتب**، م.س. ص 201 هامش 30)

[65]- ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،** الرباط، 1972، ص، 386-387

[66]- أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1956**، ج 3/ ص 83

[67]- ابن مرزوق الخطيب **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، م.س.، ص 474-477

[68]- أحمد المقري، **نفح الطيب م.س.**، ص 399-400

[69]- عبد الرحمان بن خلدون، **كتاب العبر**، ط. 1979، ج 7، ص 264-265 " وأجمع السلطان على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف... فانتسخها وجمع الوراقين لمعاينة تذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها، حتى اكتمل شأنها، وصنع لها وعاء مؤلفا من خشب الآبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة"

[70]- توجد هذه الربعة الآن بالمتحف الإسلامي بالقدس الشريف وبها جزءين من مصحف السلطان أبي الحسن. انظر وصفا فنيا لهذه الربعة في: **مصحف من نسخ سلطان: جزآن من مصحف نسخه بيده السلطان أبو الحسن المريني (731 /1331)**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2006/1426، ص 11-15 ([انظر الملحق رقم 3)

[71]- ابن الوردي، **التاريخ**، ج 2، ص 384 وانظر نصها في: **مصحف من نسخ سلطان**، م.س. ص 14

[72]- بنبين، **تاريخ خزائن الكتب**، م. س. ص 205

[73]- ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**، السفر 8 تحقيق د. محمد بنشريفة، الدار البيضاء، 1983، ص 484

[74]- انظر: Ana Maria Carballeira Debasa, *Legados píos y fundaciones familiares en al Andalus (siglos IV/X- VI/XII)*, CSIC, Madrid, 2002 ; p. 183

Avila, "Las mujeres « sabias » en al Andalus », p. 155, n° 19

جودة ضبطها، ومما يشاع أنه نسخ من كتاب الله عز وجل **ألف نسخة** من ذلك على قَسَمٍ أن لا يخط حرفا من غيره، تقربا إلى الله وتنزيها لتنزيله أن يخلطه بسواه، فسعد بالإعانة على برّ هذا القسم، ودأب على هذا العمل المبرور عمره، وتنافس الناس على طبقاتهم: الملوك فمن دونهم في ما يوجد من خطه، وخلّف في ذلك أباه وأخاه، وكانوا كلهم آية من آيات الله في إتقان هذه الصنعة المباركة"[75].

ولا نعرف بالضبط طبيعة الكتب المحبسة. وتأتي بعد المصاحف كتب التفسير، وأحاديث الرسول والفقه، وتأتي في المرتبة الثالثة مؤلفات النحو والأدب وفقه اللغة وكتب الشروح والتعليقات، وتسمى كتب الحواشي.، ولم تكن كتب العلوم النظرية تحبس إلا فيما ندر من الحالات بالمقارنة مع مؤلفات العلوم القرآنية والدينية[76].

أما الكتب الموقوفة التي لا تزال مصونة بالخزانات المغربية، فإن أقدمها يرجع إلى العهد الموحدي: مثل كتاب "الإنجاد في أبواب الجهاد" لابن أصبغ [77]، ونسختين من كتاب "التمهيد" لابن عبد البر [78] (المتوفى سنة 463 هـ)، اللذين وقفهما الخليفةُ الموحدي عمر المرتضى (المتوفى سنة 665 هـ) في القرن السابع الهجري على خزانة المدرسة التي أسسها الخليفة يعقوب بن يوسف (ت. 594 هـ) بالقصبة بمراكش، والمخطوطان معا من محفوظات خزانة ابن يوسف بمراكش[79].

وتنصّ وقفية عمر المرتضى الموحدي للسفر الرابع من " التمهيد" لابن عبد البر على أن هذا الكتاب حبسه أمير المؤمنين عام 658 هـ " **على من يقرأ فيه من المسلمين** وفرهم الله، **بمدرسة العلم بالجامع** المرتضى شرفه الله تعالى من **حضرة مراكش**، حرسها الله تعالى، **متى أرادوا القراءة فيه من ليل أو نهار، من غير إخراج له عن المدرسة المذكورة**، تحبيسا دائما مؤبدا"[80]

وفي عصر بني مرين كان معظم الكتب الموقوفة على المساجد والمدارس من تحبيسات السلاطين، وقليل منها بمبادرات بعض الإطارات الرسمية العليا، أو من جهة الفقهاء، فضلا عن أفراد من الشعب رجالا ونساء[81].

فقد حبّس أبو عنان المريني مجموعة من الكتب اختارها من خزانته الخاصة على المدرسة التي بناها بفاس، ولا تزال الوقفية التي زخرفت على باب هذه المؤسسة ماثلة إلى اليوم. وبنى أبو الحسن المريني عددا من المدارس في مختلف بلاد المغرب وحبّس عليها كتبا، ينصّ على ذلك ابن مرزوق في كتاب "المسند الصحيح": " ... هذا ما حبس في جُلّها [المدارس] من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة، فلا جرم إن كثر بسبب

---

[75]- ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة من كتابي الموصول والصلة** ، السفر السادس، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1973، ص 315-316

[76]- بنبين، **تاريخ خزائن المغرب**، م.س. 213

[77]- مخطوط محفوظ في خزانة ابن يوسف مراكش تحت رقم 216

[78]- النسختان محفوظتان في الخزانة الملكية بالرباط، وفي خزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقمي 927 و 658

[79]- شوقي بنبين، " ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية"، ضمن كتابه: **دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 7، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1993، ص 39

[80]- انظر نص الوقفية كاملا في : محمد المنوني، "نماذج من أنظمة الخزانات العمومية بالمغرب الوسيط"، ضمن كتابه: **قبس**، م. س. ص 649-650

[81]- محمد العابد الفاسي، **الخزانة العلمية بالمغرب**، مطبعة الرسالة، الرباط، 1960، ص 37

ذلك العلم وعدد أهله وثواب المعلم والمتعلم في ميزان حسناته بلغه الله بذلك" [82]. ولما بنى الحاجب المريني عبد الله الطريفي مسجده – جامع الغريبة- بفاس الجديد، أوقف به مجموعة من الدواوين المهمة[83].، وبقيت بعض المخطوطات من هذه المجموعة إلى يومنا هذا.

أما في العهد الوطاسي فيظهر أن هذه الظاهرة عرفت تطورا ملحوظا، والدليل على ذلك بعض المشاكل التي تعرضت لها، فصدرت بشأنها مجموعة من الفتاوى أوردتها كتب النوازل، من أهمها كتاب "المعيار" للونشريسي.

أما ما وقفه الملوك السعديون ووزراؤهم وعلماؤهم من كتب على مختلف الخزانات المغربية فكثير. فقد شيدت مسعودة الوزكيطية، أم العاهل السعدي أحمد المنصور، مسجد باب دكالة، وجهزته بوقف مكون من مجموعة هامة من الكتب التي يوجد جزء وافر منها اليوم في القرويين، وفي مكتبة ابن يوسف في مراكش[84].

وكان لأحمد المنصور عناية تامة باقتناء الكتب والتنافس في جمعها من كل جهة، إذ أنه تربى تربية علمية ونشأ بفاس بين أحضان العلماء ومجالس الأدب، ويقول عنه الأفراني إنه كان "جمّ الفوائد ، مشاركا في الفنون كلها، محبا للعلماء، منافسا في صحبتهم، مؤثرا لمجالسهم"[85]، وأغلب الكتب التي جلبها المنصور من المشرق وقفها على خزانته العليا المنصورية بالقرويين بفاس. ويؤكد ذلك أحمد المقري في "روضته" عندما يشير إلى ما حبّسه عليها من غرائب الكتب ما لم يسمع بمثله قط [86]. وقد أورد الدكتور مصطفى بنعلة جردا لأكثر من 170 مؤلفا مما تبقى من الكتب الموقوفة على هذه الخزانة، تحمل وقفيتها سنة التحبيس[87].

وقد ساهم الخواص في إغناء هذه الخزانات، كالمتصوف عمر الرجراجي (ت. 810 هـ) الذي اعتاد أن يحبّس المؤلفات المختلفة على جامع القرويين، وكان يتورع من تحبيس الكتب المنسوبة لقوم وهي ليست لهم، مثل شرح الرسالة المنسوب للجزولي وغيره[88]، بل ساهم في هذه العملية حتى الطلاب الصغار، مثل ابن منديل المغيلي (ت. 863 هـ) الذي "نسخ بيده أيام صغره تقييد الجزولي وأودعه تصحيفا كثيرا أخنى عليه فيه، رحمه الله تعالى، صغر سنه، وتركه محبسا بخزانة جامع القرويين"[89]

نستخلص من مختلف الوقفيات المغربية الموجودة في صفحات المخطوطات المحبسة ومن رصيد من كتب التراث العربي بالمغرب أن المغاربة ملوكا وعامة، قد دأبوا على

---

[82]- ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص 35 وقد حبس أبو الحسن نسخة من كتاب البيان والتحصيل لابن رشد على خزانة مدرسة عدوة الأندلس عام 728 هـ. ولا يزال هذا المخطوط الذي نسخ على رق الغزال محفوظا بخزانة القرويين بفاس.

[83]- ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، 1974، ج 2، ص 457

[84]- بنبين، **تاريخ خزائن المغرب**، ص 206

[85] - محمد الصغير الأفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، 1998**،، ص 133

[86]- أحمد المقري، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، الرباط، 1964**، ص 22

[87]- محمد بنعلة، **تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين من خلال حوالات تارودانت وفاس** ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2007، ج 2/ص 38-65

[88]- أحمد بابا التمبوكتي، **نيل الابتهاج**، دار الكتب العلمية، د. ت. ص 195

[89] - ابن غازي، فهرسة ص 847 (ذكره الحسين أسكان، **تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط** ، الرباط، 2004، ص 84)

وقف الكتب على المؤسسات ذات الصبغة العمومية كالمساجد، والزوايا، والمدارس العتيقة، وخزانات المساجد الجامعة وغيرها [90]، وأن المحبسين يمثلون مختلف الشرائح الاجتماعية، وكان الوقف بالنسبة للمحسنين هو وسيلة جيدة لمرضاة الله وتحقيق أمنياتهم[91]. فهناك تحبيسات السلاطين المرينيين و الملوك السعديين، وهناك تحبيسات الأميرات والأمراء، وتحبيسات القادة والعلماء، ومنها ما هو من تأليف ملوك المغرب وسلاطينه. وتوجد أيضا مخطوطات في الخزانة هي من تحبيس المؤلف نفسه.

ومن حسنات الوقفيات الموجودة على المخطوطات، إرشادنا إلى بعض المكتبات الخاصة التي لم نتعرّف عليها إلا عن طريق المؤلفات التي حبّسها أصحابها، وهكذا فنحن لم نعرف **مكتبة الأميرة مريم بنت العاهل المريني** محمد إلا عبر مصحف أنجز لخزانة كتبها، وحبّس على هذه الخزانة العمومية [92]، ويوجد هذا المصحف اليوم محفوظا في المكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم ج 656.

ويذكر محمد المنوني، رحمه الله، طريقة طريفة في كتابة تقييد الوقف، كانت معروفة في عصر الموحدين، وصدر أيام بني مرين، وهي "إضافة كلمة "حُبُس" مكتوبة على الطريقة المغربية، بواسطة ثقوب متتابعة بالإبرة أو شبهها حتى تنفذ لسائر أوراق الكتاب"[93]. وذكر المنوني بعض هذه الكتب التي تحمل هذه الطريقة من التقييد، ومنها يستشف أن هذه الطريقة كانت خاصة بالموقوفات بالغة الأهمية، أغلبها مكتوب على الرق، وقد انتشرت هذه الطريقة المغربية في أقطار أخرى، ويندرج استخدام الأختام في إطار توسيع هذه الطريقة، حسب بعض الباحثين المختصين في علم المخطوط العربي[94].

وتضم الوقفية الكاملة العناصر التالية: صيغة الوقف، واسم الواقف، والمكتبة/ أو الكتاب وشروط الوقف، وصيغة الحضر، وتاريخ الإيداع، وبعد ذلك يوجد إشهاد الشهود، وموافقة العدول، وأخيرا الإثبات الأصلي للتحبيس في أعلى الورقة أو أسفلها التي تحمل صيغة الوقف.

وصيغة الوقف الكاملة هي تلك نجدها مثلا في **وقفية ابن خلدون** التي بثها في الجزء الخامس من كتاب العبر الذي حبسه على خزانة القرويين في نهاية القرن الهجري الثامن. ولم يبق من هذه النسخة الموقوفة إلا الجزآن الثالث والخامس الذي يحمل نص الوقفية. وفي أسفل الورقة شهادة ابن خلدون وتصحيحه للوقف بخط يمينه[95].

3- تحبيس المكتبات:

من أهم المظاهر التي يتجلى فيها البُعد العلمي للوقف: إنشاء المكتبات ورعايتها وتزويدها بالكتب. والتحبيس على المكتبات وفتح أبوابها في وجه طلاب العلم يعكس حب المسلمين

---

[90]- بنبين، **تاريخ خزائن المغرب**، م. س.، ص206؛ نفسه، **دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي**، الرباط، 1993، ص 46

[91]- تحمل وقفية بعض المصاحف متمنيات برزق الأطفال، صادرة عن زوجين عقيمين. (بنبين، **تاريخ خزائن المغرب**، ص 206 هامش 43)

[92]- بنبين، **تاريخ خزائن الكتب**، ص 221

[93]- **قبس من عطاء المخطوط المغربي**، 638

[94]- فرانسوا ديروش، **المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي**، م. س. ص، 488

[95]- انظر الملحق رقم 4

للعلم وأهله وحرصهم على نشره بين الناس. وبفضل هذا الحب الذي غرسه الإسلام في أهله، أقبل الناس على وقف الكتب وإنشاء المكتبات العامة والخاصة، وإن وقف المكتبات والكتب من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات[96].

يقول أبو القاسم محمد الأنصاري السبتي (ت. 825 هـ) في كتابه: " اختصار الأخبار"[97] حين حديثه عن خزائن الكتب بمدينة سبتة: " وكان منها [الخزانات] في زمننا [القرن الثامن الهجري] سبع عشر خزانة، تسعٌ بدور الفقهاء والصدور كبني القاضي الحضرمي، وبني أبي حجة وأشباههم، **وثمانٍ موقوفة على طلاب العلم** ، أقدمُها الخزانة الشهيرة ذات الأصول العتيقة والمؤلفات الغريبة: خزانة الشيخ أبي الحسن الشاري المذكورة التي بالمدرسة المنسوبة إليه التي ابتناها من ماله ، **وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم** ، نفع الله بها".

فأقدم خزانة تكون قد وقفت على طلاب العلم حسب هذا النص، جاءت بمبادرة خاصة - لا بمبادرة مخزنية- من أبي الحسن الشاري الغافقي (571- 649 هـ) أحد علماء العصر الموحدي[98]. أما المبادرة المخزنية فقد جاءت على يد المرينيين. إذ تكاثرت خزانات الكتب العمومية مثل خزانات المساجد الكبرى والجوامع والمدارس والزوايا تقريبا في كل مكان من المغرب في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن/ 13-14م، وكان الوقف تقريبا هو العنصر الشرعي الوحيد الذي كان وراء بنائها ودوام خدمة الكتب فيها. وكان السلاطين الواقفون يعلنون في نهاية تشييد أحد هذه المؤسسات ذات الطابع العمومي، تحبيسها على طلبة العلم ابتغاء وجه الله العظيم، وما زالت أبواب العديد من هذه المكتبات العمومية تحتفظ بتقييد الوقف. لقد شيد السلاطين المرينيون خزانات جديدة، ووسعوا القديمة، وحبسوا عليها الكثير من الكتب والرباع المختلفة، نذكر منها على سبيل المثال أن السلطان أبا يوسف يعقوب زوّد مدرسة الحلفاويين التي أنشأ بفاس بخزانة علمية وقف عليها النفيس من المخطوطات التي استردها من الملك القشتالي "سانجة". ذلك أن العاهل المريني اشترط على ملك قشتالة – مقابل عقد الصلح بينهما- " أن يبعث إليه بما يجده في بلاده بأيدي النصارى واليهود من كتب المسلمين ومصاحفهم، فبعث إليه منها **ثلاثة عشر حملا... فحملت إلى فاس، فحبسها على طلبة العلم بالمدرسة التي بناها**"[99].

- خزانة أبي عنان العلمية: 750 هـ

---

[96]- وانتشرت مكتبات الوقف في الأندلس والمغرب على مر التاريخ. ومن الطرائف التي تدل على ذلك ما ذكره المقري في "**نفح الطيب**" حيث حكى أن أبا حيان أثير الدين بن يوسف الإمام النحوي الغرناطي المشهور عاب عليه الإكثار من شراء الكتب، وقال: "الله يرزقك عقلا تعيش به، أنا **أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف** ، وإذا أردت من أحد أن يعيرني درهما ما وجد ذلك". (عن ندوة "إدارة وتثمير ممتلكات الوقف"، محاضرة عبد الملك أحمد السيد، ص.235..)

[97]- محمد بن القاسم الأنصاري، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، الرباط، 1983، ص 145

[98]- وهناك نص آخر في روض القرطاس لابن أبي زرع عن القرويين يمكن أن يستفاد منه أن هذه الظاهرة كانت معروفة في المغرب منذ العهد المرابطي. (**روض القرطاس**، 43، بنبين، **دراسات في علم المخطوط**، ص 39، نفسه، **تاريخ خزائن الكتب**، م. س. ص 200). ويستبعد المرحوم محمد المنوني أن يتأخر تأسيس المكاتب العامة بالمغرب إلى هذا العهد الأخير من الدولة الموحدية... فالظاهر – حسب رأيه - أن "ابتداء تأسيس المكاتب العامة بالمغرب كان قبل ذلك العهد، في العصر المرابطي، أو أوائل العصر الموحدي على الأقل. وإنه أسست إذ ذاك مكاتب عامة أهملها التاريخ المغربي فيما أهمل، فقاتل الله الإهمال" (محمد المنوني، **دور الكتب في ماضي المغرب** ، م.س.، ص 51)، وانظر كذلك: محمد العابد الفاسي، **الخزانة العلمية بالمغرب**، 1960، ص 23

[99]- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، 263

ونقرأ في صيغة التحبيس المنقوشة على ساكف مدخل خزانة القرويين التي كتبها السلطان المريني أبو عنان، مؤسس هذه خزين ته هناك: "[...] أنشأ هذه الخزانة السعيدة، الجامعة للعلوم الحميدة، المشتملة على الكتب التي أنعم بها من مقامه الكريم، المحتوية على أنواع العلوم، الواجب بها التعظيم والتكريم، جعل ذلك نصره الله، **وقفا مؤبّدا لجميع المسلمين** حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، حرصا منه أيده الله، **على طلبة العلم وإظهاره وإتقانه واشتهاره، وتسهيلا لمن أراد القراءة والنسخ منها والمطالعة والمقابلة**، وليس لأحد أن يخرجها من أعلى المودع التي هي فيه، ولا يغفل المحافظة عليها والتنويه، أراد بذلك وجه الله العظيم، وثوابه الجسيم، ضاعف الله بذلك حسناته، ورقى في الجنان درجاته، وأطال ملكه، ونظم بالصالحات سلكه، وذلك في جمادى الأولى عام خمسين وسبع مئة، أوصله الله بالبركات الزكية[100]

لقد كانت الخزانة تحتوي على عدد من النفائس والذخائر [101]، وما يزال بعضها إلى الآن، طائفة من الكتب . وقد أوضح الدكتور عبد الهادي التازي أن "أكثر الكتب التي تمت إلى الأندلس بصلة وثيقة، والتي هي الآن في خزانة القرويين، يرجع تاريخ وقفها إلى السلطان أبي عنان، أو إلى والده أبي الحسن، أو جده أبي سعيد، وربما إلى أبي يوسف يعقوب" [102].

وقد عهد العاهل المريني بالخزانة المذكورة إلى أحد العلماء الأعلام بالسهر عليها وصيانتها، كان بمثابة القيم أو الحافظ، كما نسميه اليوم، وخصص له في مقابلة ذلك جراية يستعين بها على القيام بوظيفته[103].

ولم يزل الملوك والأمراء يحبسون عليها نفائس الدفاتر وجليل الذخائر في مختلف العصور، فقد أوقف عليها سلاطين المرينيين الآخرون وملو ك الوطاسيين الشيء الكثير [104]، ثم أوقف عليها المنصور السعدي وأولاده كثيرا من مخطوطاته [105]. ولقد كانت هذه الخزانة، قبل أن تمتد إليها يد النهب والسلب، من أكبر مكاتب العالم الإسلامي، ومن الدليل على ذلك ما كتبه ابن ميمون الغماري (ت. 917 هـ) الذي قضى سبعة أعوام بالقرويين طالبا، في كتابه " الرسالة المجازة في معرفة الإجازة" : " وتأتي خزانة الكتب التي يطالع طلبة العلم فيها ما يحتاج إليه المشايخ وغيرهم، كل واحد على ما يشتهي، وذلك لأن فاس المذكورة فيها خزانتان عظيمتان مشهورتان لهذا الأمر في جامعي الجمعة، وهما المسجدان الأعظمان، **كل خزانة فيها كتب موقوفة على طلبة العلم** للمطالعة كل يوم على يد وكيل ناظر على ذلك حافظ له، يجلس المطالعون بين يديه في موضع خاص، حتى إذا قضى غرضه يردّ الكتاب إلى الوكيل، فيرده الوكيل إلى الخزانة من صلاة الظهر إلى صلاة العصر... **والكتب كثيرة لا**

---

[100]- د. عبد الهادي التازي، **جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس** ، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1973، ص 331؛

[101]- ورد في **جنى زهرة الآس**، للجزنائي (ص 76) أن الخزانة المذكورة محتوية على " أنواع من علوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشتى ضروبها وأجناسها" (وانظر كذلك: **جذوة الاقتباس**، لابن القاضي، ج 1، ص 73) وانظر نماذج من نفائس هذه المكتبة وذخائرها المخطوطة المحبسة في: محمد المنوني، **دور الكتب**، م. س.، ص 59-63

[102]- د. عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، ج 2/ 331، محمد العابد الفاسي، **الخزانة العلمية بالمغرب**، ط 1960

[103]- الجزنائي، **جنى زهرة الأس** ، ص 76؛ عبد الحي الكتاني، **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب** ، ضبط وتعليق أحمد شوقفي بنبين وعبد القادر سعود، منشورات الخزانة الحسنية، مراكش، 2005، ص

[104]- محمد العابد الفاسي، **الخزانة العلمية بالمغرب**، م. س. ص 29 وما بعدها

[105]- محمد المنوني، **دور الكتب**، م.س.، ص 58

تكاد تحصى إلا بمشقة من كل فن في فنون العلم. وهذا أيضا شيء ما رأيته في بلاد المشرق والشام والحجاز وبلاد الترك، الذي هو دونهما فيمكن عد كتبه بلا مشقة"[106].

- مكتبة المصاحف بالقرويين

وبالإضافة إلى المكتبة العلمية، جعل السلطان أبو عنان مكتبة خاصة بالمصاحف القرآنية في قبلة المسجد... تنعتها الحوالات الوقفية بالخزانة الصغرى. أودع غيها – كما يقول الجزنائي- " جملة كثيرة من المصاحف، الحسنة الخطوط، البهية الجليلة السنية، وأباحها لمن أراد التلاوة فيها، بعد أن كتب على كل منها بخط يده لتوقيفها مر الأعوام والليالي والأيام"[107]، وأعد لهذه المكتبة قيّما بجراية كافية ليرضي رغبة الناس، ويتناول المصاحف بالعناية والصيانة وردّها إلى موضعها. وقد تم بناء هذه المكتبة تقريبا في نفس التاريخ الذي بنيت فيه الخزانة العلمية [شهر شوال سنة خمسين وسبع مئة، / 13 دجنبر 1349][108]، وقد استمرت هذه الخزينة تؤدي وظيفتها عبر العصور المريني والعصور اللاحقة[109].

هذا كما وجدت مكتبة للمصاحف بالجامع الكبير بمكناس، وأخرى بشالة، كان ملوك بني مرين قد حبسوا عليها مصاحف كريمة محلاة بالفضة وغيرها على أضرحة ملوكهم المدفونين هناك، وقد تسلط عليها أحمد اللحياني الذي ثار على عبد الحق المريني آخر ملوك بني مرين، وأخذها ونزع ما كان عليها من حلية الفضة وغيرها. وفي نوازل الأحباس من "المعيار"[110] سؤال يظهر أنه من عبد الحق المذكور للإمام القوري يستفتيه في شأن المصاحف المذكورة، حيث إنه ظفر بها، **ه ل له أن يجعلها بخزائن كتب العلم المحبسة على المسلمين؟**

ولم تكن المكتبات الوقفية خاصة بمدينة فاس وحدها، بل وجدت مكتبات أخرى في عدة مدن مغربية، بل امتدت لتشمل بعض المدارس بالبوادي، مثل خزانة مدرسة علم الكلام بجبل بني يزرو بالريف، التي كانت ضخمة، وقدرت قيمة كتبها سنة 918 هـ بأربعة آلاف مثقال[111]؛ هذا ويشير إليه ابن مرزوق الخطيب في معرض حديثه عن المدارس التي شيدها أبو الحسن المريني بتازة وأنفا وآزمور وأسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير وطنجة وسبتة، وبالعباد ظاهر تلمسان وبالجزائر، وكيف أنه جهزها: " **وحبس في جلها من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة** "[112]. وورد في "معيار" الونشريسي أن أبا الحسن المريني "حبس كتبا على مدرسة ابتناها بالقيروان وأخرى بتونس، وجعل مستقرها بيتا بجامع الزيتونة بها، فلما يئس من تمامها قسمت الكتب على مدارس تونس"[113], وفعل ابنه

---

[106]- مخطوط مكتبة القرويين بفاس، ويوجد ميكروفيلم له بالمكتبة الوطنية بالرباط رقم 1343، وانظر كذلك عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، ج 2/ ص 412، وكذلك محمد المنوني، **دور الكتب**، م.س.، ص 59،عبد القادر العافية، " **يوميات طالب بالقرويين في القرن التاسع الهجري**"، مجلة دعوة الحق، المغرب، العدد 272، 1988، ص 141-142

[107]- **جنى زهرة الآس**، 76

[108]- عبد الحي الكتاني، **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب**، م.س.، ص 82

[109]- ما تزال الحوالات الوقفية تحتفظ بلائحة العدد الوافر من المصاحف التي كانت الخزانة تحتضنها، كما أن تلك الحوالات تحتوي على طائفة من الأوقاف الخاصة المحبسة على هذه " الخزانة الصغرى" (التازي، **جامع القرويين**، 349/2 هامش 87]

[110]- أحمد الونشريسي، **المعيار المعرب م.س.**، ج 7/ ص 18-21

[111]- الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، 1/ ص 259

[112]- ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، م.س. ص 406-407

[113] - الونشريسي، **المعيار**، 7/ 335

أبو عنان نفس الشيء، فقد حبس في كل المسجد والمدارس تقريبا التي بنيت في عهده مخطوطات قيمة.

- خزانات السعديين العلمية

وكما أنشأ أبو عنان خزانة علمية وجعل لها حريما في الركن الشرقي الجنوبي للقرويين، فقد أسس عبد الله الغالب السعدي خزانة ابن يوسف بمراكش سنة 965 هـ، ووقف عليها عدة كتب[114]، ولما بنى أيضا مكتبة جامع الشرفاء بنفس المدينة "شحنها بنفائس الكتب "، ووقف عليها من نوادر المخطوطات الشيء الكثير [115]، وجعلها في مستوى خزانة القرويين بفاس. ومما يدل على أهمية هذه الخزانة هو أن أحمد بابا التمبوكتي (ت. 1036 هـ) استفاد منها كثيرا، واعتمد على مخطوطاتها في تأليف كتبه الشهيرة في التراجم، خاصة "نيل الابتهاج" و "كفاية المحتاج" اللذان هما عبارة عن ذيل لديباج ابن فرحون [116]. وبدوره بنى أبو العباس أحمد المنصور السعدي خزانة علمية بجامع القرويين بفاس في جهة القبلة عن يسار خزانة المصاحف، ولم يكن القصد إلى الاستغناء عن مبنى الخزانة المرينية الأولى، ولكن إرضاء الرغبات المتزايدة للطلاب [117]، وقد سمّتها الحوالة الإسماعيلية بالخزانة الأحمدية الشريفة، نسبة إلى أحمد المنصور الذهبي، وفي المؤرخين من نعتها بـ "السعيدة"، وبالخزانة "المنصورية"[118]، لكن الإمام المَقري يسميها "الخزانة العليا"[119].

وكان المنصور السعدي مهتما بجعل تصحيحاته على الكتب الموقوفة، وعرف بجلب عدد كبير من غريب المخطوطات أو بانتساخها خصيصا لهذه الخزانة[120]

كما بنت مسعودة الوزكيطية، أم المنصور، خزانة بجانب مسجد بابا دكالة الذي شيدته ووقفت عليه عددا كبيرا من الكتب، ويوجد بعضها اليوم محبسا على خزانة القرويين بفاس[121]. وكذا أبو فارس بن المنصور، وهو لا يزال أميرا في حياة أبيه- حين بنى مسجد أبي العباس السبتي، حيث أقام بجانبه خزانة مهمة لا تزال بعض الكتب التي وقفها عليها محفوظة إلى اليوم بمكتبة الإسكوريال بإسبانيا [122]، وقد عبر أحمد المقري عن كثرة الكتب التي وقفها أبو فارس على هذه الخزانة بقوله: " **وحبس عليها خزائن من الكتب العتيقة"**[123]، فكأنه جمع فيها ما يملأ مكتبات عديدة.

وكان زيدان أكثر أبناء المنصور عناية بالعلم ورجاله، وقد خلف عددا ضخما من الكتب ورثها عن أبيه تعد نفائس ما خلفه السعديون، وقد حبس عددا من الكتب على الخزانة العليا

[114]- لا تزال هذه الخزانة تحتفظ حتى اليوم ببعض الكتب الموقوفة من العصر السعدي، مثل مخطوطات أرقام 385و 464 و499 (محمد حجي، **الحركة الفكرية**، 1/ 182)

[115]- نفسه

[116]- نفسه، ونفس المعطيات يوردها أحمد بنبين، **دراسات في علم المخطوط**، م. س.، ص 120-121

[117]- حجي، **الحركة الفكرية**،1/ ص 182

[118]- العابد الفاسي، **الخزانة العلمية بالمغرب**، ص 49

[119]- أحمد المقري، **روضة الآس**، 22

[120]-أحمد المقري، **روضة الآس**، 69-70، عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، 342/2

[121]- د . بنعلة، **تاريخ الأوقاف**، م.س. 2/ ص 8

[122]- مثلا المخطوط رقم 1840. انظر: محمد حجي، **الحركة الفكرية**، ج1/ص 186

[123]- أحمد المقري، **روضة الآس**، ص 59؛ وانظر كذلك: الإفراني، **النزهة**، ص 171

بمدينة فاس[124], والجدير بالذكر أن أهم الكتب التي توجد بمكتبة الإسكوريال بمدريد هي جزء من مكتبة المولى زيدان التي سلبها القراصنة الفرنسيون في الأول ثم الإسبان بعدهم في صيف 1612م، ولم يشأ الإسبان إرجاعها لأصحابها رغم المحاولات المغربية المتكررة[125].

لقد حدد الأستاذ محمد حجي – وهو أكثر المهتمين بالحركة الفكرية في العهد السعدي- مميزات هذه الخزانات في خمس، وهي: اتساع الرقعة الجغرافية للخزانات، ودخول كميات كبيرة من الكتب من الأندلس والمشرق، ووفرة المؤلفات المغربية الورق، وبقاء معظم كتب العصر السعدي إلى اليوم. وبدورنا نضيف خاصية سادسة ربما كانت أساس الخاصية الخامسة، آلا وهي الوقف المكثف على الخزانات التابعة للمساجد[126].

- التحبيس على خزائن الزوايا:

لم تكن المساجد والجوامع هي المؤسسات الدينية الوحيدة التي نالت اهتمام المحبسين، بل صادفنا أوقافا خصصت أيضا إلى مؤسسات دينية أخرى هي الزوايا. فقد شهد القرن 10 هـ/ 16 م امتدادا واسعا في نشاط الزوايا حيث تكاثر عددها بتكاثر عدد الشيوخ، وأصبحت أدوارها تجمع ما بين السياسي والاجتماعي والثقافي؛ فقد كانت الزوايا ملجأ خيريا يأوي إليه أبناء السبيل وطوي الحاجة، يتزودون منها بما يسد حاجاتهم من طعام وشراب ولبس وسكنى مجانا، ومن ثمة كانت تؤدي دورا إنسانيا عظيما على الصعيد الاجتماعي.

أما بالنسبة للدور الثقافي، فقد تحولت الزوايا إلى مراكز علمية، وصرف المرينيون والسعديون إليها جبايات الأقاليم المجاورة للإنفاق على الأساتذة والطلبة حتى أصبح الطالب العلمي إحدى مميزات الزوايا المغربية [127] حيث اشتغلت بالتثقيف والتعليم، الأمر الذي جعل منها مراكز لاستقبال الطلبة والزوار الراغبين في الاستفادة من المعرفة، وساهمت خلال فترات تاريخية، في توعية المجتمع المغربي عن طريق تعليم العلوم المختلفة منها القراءات والتفسير والحديث والتوحيد وفقه الأصول والتصوف، كما ساهمت في نشر المعرفة عن طريق إنشاء الخزانات.

إن مكتبات الزوايا هي الضرب الثالث من الخزانات العمومية التي كانت دائما تفيد من تحبيس المخطوطات، فقد شكل التحبيس دائما أحد العناصر الهامة لإغناء هته المؤسسات الدينية. فقد أهدى شيوخ الزوايا المعروفون بعلمهم وتبحرهم كتبَهم لهته المكتبات، وغالبا ما كانوا يحبسونها عليها ابتغاء وجه الله العظيم. ومما تمتاز به الخزانة المغربية في العهد الوطاسي أنه فيه ابتدأ تنافس مشائخ الزوايا في تحبيس الكتب وتأسيس المكاتب، حيث شاركوا بكثرة في هذا الميدان، وسدوا فراغا كبيرا في تاريخ المكتبة المغربية خلال هذا العصر والعصرين بعده[128]

---

[124]- انظر جردا لما تبقى من الكتب التي أوقفها زيدان على الخزانة العليا سنة 1018 هـ عند د. بنعلة، **تاريخ الأوقاف**، 2/ 74-73

[125]- د أحمد شوقي بنبين، " العلاقات المغربية الإسبانية إثر اختطاف خزانة الأمراء السعديين"، ضمن كتابع: **دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي**، م. س. ص 119-133

[126]- د. بنعلة،، **تاريخ الأوقاف** م. س. 261

[127]- محمد حجي، **المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين السادس والسابع عشر**، مجلة المناهل، العدد 18، ص 119

[128]- محمد المنوني، **دور الكتب في ماضي المغرب**، م.س.، ص 22

وتضم مكتبة زاوية تامكروت، ومكتبة الزاوية الحمزاوية ومكتبة الزاوية الناصرية، وغيرها من المكتبات[129] مثلا العديد من النماذج.

واعتبارا لمختلف الأدوار التي أصبحت تلعبها زوايا منذ العصر المريني، وخاصة في العصر السعدي، فقد حبست عليها أوقاف كثيرة من طرف عامة الشعب، وبمساهمة رجال الدولة بحسب درجة الحاكم وحال بيت المال [130]، وكان الهدف الأسمى من إنشاء أوقاف خاصة بالزوايا – سواء كان عقارا أو منقولا- هو ضمان استمرار عمل هذه الزوايا وحسن تسييرها في أداء رسالتها الاجتماعية والثقافية[131].

إننا نستنتج من كل هذه المعطيات أن وقف المخطوطات قد ظهر بالفعل على عهد الموحدين، ووصل قمته في الفترات الموالية وخاصة ابتداء من المرينيين [132] كما أن أقدم أوقاف المخطوطات التي وصلتنا هي الأوقاف الملكية. فالملوك المغاربة منذ الموحدين على الأقل، لم يدخروا أي جهد من أجل تحبيس الكتب على المؤسسات العلمية توخيا لأن يفيد منها طلبة العلم.

4- تحبيس الكراسي العلمية:

أدى ازدهار الفكر والثقافة واتساع مجال العلوم في العصر المريني إلى بروز ظاهرة فريدة تتجلى في وفرة الكراسي العلمية، أو كراسي الوعظ المخصصة لكبار الأساتذة في مختلف المساجد، وخاصة في جامع القرويين بفاس، وهو تقليد نقله المغاربة من المشارقة أثناء الحج أو عن طريق الرواية. واعتمادا على ما وصفه ابن بطوطة بالمدرسة المستنصرية ببغداد: " وبها المذاهب الأربعة، لكل مذهب إيوان في المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس في قبة من خشب صغيرة على كرسي عليه البسط"[133]

وقد وجدت بفاس حوالي أربعين كرسيا ومئة كرسي، منها ثمانية عشر كرسيا، بجامعة القرويين، كلها كانت تؤدي رسالتها في التثقيف والتعليم ومحاربة الأمية [134]، ومعظم هذه الكراسي كان له أوقافه الخاصة به، كما كانت أوقاف أخرى لبعض الكراسي العلمية بالجوامع والمساجد الصغرى بفاس لسيرها.

ولعل أبرز مصدر يصف لنا أوضاع هذه الكراسي هو "وصف إفريقيا" للحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي، الذي درَس في القرويين في بداية القرن العاشر، فهو شاهد عيان جدير بالاعتماد عليه. يقول الحسن الوزان: " وفي داخل الجامع على طول الجدران يشاهد المرء كراسي مختلفة الأشكال يدرس عليها العديد من العلماء الأساتذة حيث يلقون على الشعب دروسا تتعلق بأمور دينية وتشريعية"[135].

---

[129]- انظر جردا لها في: محمد حجي، **الحركة الفكرية**، ج1/ ص 184-194

[130]- نفسه، ص

[131]- وقف المرينيون قبل السعديين أوقافا مهمة على الزوايا (انظر: **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** ، .. المنوني، **حضارة المرينيين**...

[132]- بنبين، **تاريخ خزائن الكتب**، م.س. ص 203

[133]- محمد المنوني، " **كراسي الأساتذة بجامعة القرويين**"، مجلة دعوة الحق، العدد 4، 1966، ص 91؛ نقلا عن "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لابن بطوطة.

[134]- عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، ج 402/2

[135]- الوزان، **وصف افريقيا**، 1/ ص 177

ورغم تنوع هذه الكراسي ووفرتها في العصر المريني، فإنها لم تكن بالكثرة التي عرفها العصر السعدي. ولعل مرد ذلك إلى موقف بعض علماء العصر المريني من هذه الكراسي، حيث اعتبروا إحداثها في المساجد للإقراء من أعظم البدع، حسب ما ذكره الونشريسي في "المعيار" [136]. ويظهر أن هذا الموقف تغير مع مرور الزمن، خاصة عندما اتضحت أهمية الأحباس في المعونة على أداء الدرس للطالبين والمستفيدين ، وقد تغلب هذا الموقف مع مر الزمن، فكثرت كراسي التدريس وتوافرت أحباسها، رغم الخراب الذي أصاب بعض الأملاك المخصصة لهذا الغرض خلال فترة الحكم الوطاسي[137].

ولم يعد تأسيسها وتخصيص الأوقاف لها قاصرا على رجال الدولة، بل أصبح يشارك في ذلك خاصة الناس وعامتهم[138].

ويمكن تقسيم الكراسي بالمساجد إلي نوعين: كراسي التوريق، وكراسي التدريس[139].

- كراسي التوريق (الوعظ والتذكير): كانت هذه الكراسي موجهة لتعليم الراشدين من العامة وإعطاء دروس للوعظ من خلال كتب بعينها، وتسمى التوريق [140]، ويمكن اعتبارها كراسي خاصة بـ "التعليم الشعبي"، وظهرت في مسجد القرويين سنة 651 هـ بمبادرة من إمام مسجد القرويين علي بن الحاج (653 هـ) الذي كان يدرس تفسير الثعالبي وكتاب " حلية الأولياء" في التصوف لابن نعيم، بعد صلاة الصبح. وكان يجتمع في مجلسه آلاف من الناس، ونظرا لنجاح دروسه، أجرى عليه الأمير أبو بكر بن عبد الحق (642-656 هـ/ 1244-1258م) جراية من بيت المال أول الأمر، ولم يحبس على ذلك أوقافا، وإنما أحدثت الأحباس بعد ذلك، في وقت غير معروف، وتعددت بعد ذلك أحباس كراسي التوريق وتزايد عددها، خاصة في منتصف القرن الثامن الهجري، وأصبح عددها مهما بجامع القرويين خلال القرن العاشر للهجرة[141] ونسب لبعض صلحاء فاس أنه رأى أبا عنان في المنام، وأنه غفر له ودخل الجنة بفضل تحبيسه على قراءة كتاب الشفاء[142].

وانتقلت هذه الظاهرة إلى أهم مساجد فاس، فأحدث كرسي للوعظ والتفسير بالمسجد الجامع من المدينة البيضاء، مقر الحكم المريني بفاس، حوالي سنة 825 هـ، ويتلقى القارىء عليه أجره من أوقاف هذا الجامع[143].

وعندما أسس عبد الله الطريفي، حاجب السلطان المريني أبي سعيد الثاني (800-823) جامع للا غريبة بفاس، حبس عليه كتاب الشفاء للقاضي عياض ليقرأ منه العامة، بعد صلاة الصبح كل يوم، وكانت أجرة القارىء عليه من الأحباس ستة دنانير شهريا[144]

---

[136]- الونشريسي، **المعيار**، 2/ص 380، وقد جاء في (المدخل) لابن الحاج ضمن أحد فصول آداب الدرس: "وما رأيت أحدا من علماء المغرب وفضائلهم يقعدون على حائل دون جلساتهم"

[137]- الوزان، **وصف إفريقيا**، 179

[138]- محمد حجي، **الحركة**/ ص 119

[139]- الحسين أسكان، **تاريخ التعليم بالمغرب**، م.س.، ص 79

[140]- ابن الأحمر، **بيوتات فاس الكبرى**، ص 23

[141]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، 23

[142]- المقري، **أزهار الرياض**، ج 5/ ص 86

[143]- الونشريسي، **المعيار**، 7/ ص 5

[144]- A. Bel , « *Inscriptions arabes de Fès* », op. cit. p. 199

ونظرا لتضافر جهود السلاطين ورجال المخزن والرعية، تكاثر عدد كراسي التوريق بالمساجد في مطلع القرن العاشر الهجري، كما يظهر من خلال ما لاحظه الحسن الوزان، حينما تحدث عن الحياة الفكرية بفاس التي عاش فيها تلميذا وطالبا وكاتبا يقول: " وبالمدينة مسجد أعظم، يدعى "جامع القرويين" ... وفي داخل الجامع على طول الجدران يشاهد المرء كراسي مختلفة الأشكال يدرس عليها العديد من العلماء الأساتذة، حيث يلقون على الشعب دروسا تتعلق بأمور دينه وشريعته. تبتدئ هذه الدروس بعد الفجر بقليل، وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس... وتلقى دروس أخرى في الصيف، ويتعلق الأمر بالعلوم الأخلاقية والروحية المتعلقة بالشريعة المحمدية"[145].

ويستفاد من بعض الفتاوى أن التحبيس على كتب الوعظ وصل إلى بعض البداوي في القرن التاسع للهجرة، وانتشرت معه بعض كتب الوعظ المنافية للسنة[146].

هكذا تحولت دروس الوعظ والتذكير للعامة التي كانت قبل القرن السابع للهجرة دروسا تطوعية يلقيها المتعلمون مجانا، إلى دروس يتلقى المشرفون عليها أجورهم من الأحباس، وبذلك أصبحت منتظمة تلقى يوميا، بعدما كانت في الماضي تلقى يومي الإثنين والخميس، أو في بعض المناسبات، ولا يشترط في متوليها أن يتوفر على تكوين علمي كبير، بقدر ما تتطلب حسن الصوت والإلقاء، لذلك كانت أجور هؤلاء متدنية مقارنة بالعلماء المتضلعين الذين يدرسون على كراسي علمية، موجهة لطلاب العلم، و"يتقاضون عن دروسهم أجورا عالية حسنة وتقدم لهم الكتب والإنارة"[147].

- **الكراسي العلمية**: وهي كراسي محبسة لتدريس علم من العلوم للطلاب بالمساجد، ومن خلال كتاب بعينه في بعض الأحيان، ويمكطن اعتبارها كراسي خاصة بالتعليم العالي.[148]

ويجهل تاريخ ظهور هذه الكراسي، وكل ما نعرف حاليا أنه كان يوجد منها ستة كراسي في القرن التاسع الهجري بجامع القرويين، مخصصة لتدريس الحديث والفقه والقراءات والنحو، من خلال كتب معينة حبسها المحبسون لذلك[149].

والجدير بالذكر أن ولاية كرسي التدريس بالقرويين تعتبر منصبا ساميا، ولهذا كانت لا تصدر إلا عن السلطان أو ولي عهده خاصة، " ومن نماذج ذلك تولية أبي القاسم بن محمد بن أبي النعيم (ت. 1032 هـ) من قبل أحمد المنصور بعد وفاة أحمد المنجور [150]، وتولية محمد القاسم بن محمد بن علي القصار (ت 1012هـ) من طرف نفس السلطان [151]، وهناك أيضا تولية أبي القاسم بن سودة المري (ت 1004 هـ) بعد وفاة المنجور ومن طرف السلطان نفسه، ونفس الشيء ينطبق على عبد الله بن سودة المري (ت . 1015 هـ) الذي صار إليه كرسي والده بتولية من السلطان السعدي نفسه، وذلك سنة 1003 هـ.

---

[145]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، 1/ 224

[146]- الونشريسي، **المعيار**، 7/ ص 111

[147]- الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، 1/ 224؛ الحسين أسكان، **تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط**، م. س.، ص 81-82

[148] السعيد لمليح، " **مؤسسة الأوقاف وأهميتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بمدينة فاس**." مجلد دعوة الحق، العدد 363، 2002، ص 93

[149]- الحسين إسكان، **تاريخ التعليم بالمغرب**، م.س. 82

[150]- نفسه، هامش 30

[151]- نفسه

أما ولي عهد المنصور محمد الشيخ المأمون، فقد ولي الفقيه العالم أحمد بن زغبوش على كرسي بالجامع الأعظم بمكناس سنة 1008 هـ، حسب ظهير صادر عنه[152]:

ولما كانت الولاية على الكراسي بمثابة ولاية حكومية لا تقل عن منصب القضاء والفتيا، فإن الحصول عليها كان يستدعي عدة مؤهلات، ومن الثابت تاريخيا أن في عهد هذه الدولة وجدت عدة شخصيات مرموقة، كانت نجوما لامعة في سماء العلم، وعرفت برصيدها المعرفي الغزير، استطاعت أن تؤدي رسالتها العلمية للخاصة والعامة من الناس.

ولهذا وقبل أن يصدر السلطان أو ولي عهده ظهير تولية من يدرس على الكرسي، لا بد له أن يقف على شهادة تثبت المؤهلات العلمية للمعني بالأمر، ولنا مثال واضح في هذه الشأن، فالمأمون، ولي عهد المنصور، لم يصدر الظهير السابق الذكر، والذي يخص العالم بن زغبوش المعين على كرسي القشيري بمكناس في أوائل صفر الخير عام 1008 هـ إلا بعد توصله بشهادة تثبت مؤهلات ابن زغبوش، والمؤرخة في أواخر محرم الحرام من نفس السنة، أي قبل صدور الظهير بأيام قليلة[153]:

لذلك رصدت عدة أوقاف باختلاف أنواعها (عقارات، كتب...) [154] على الكراسي العلمية، وأنفقت مستفاداتها – خاصة العقار منها- على العلماء الذين يقومون بالتدريس

---

[152]- انظر نص الظهير في الملحق رقم 5

[153]- انظر نص الشهادة في الملحق رقم 6

[154]- نشير مثلا إلى:

- **كرسي المحراب**: أنشأ سنة 651 هـ. والذي بلغ عدد العقار المحبس عليه أكثر من واحد وعشرين عقارا: 12 للقراءة صباحا وتسعة للقراءة مساء (التازي، **جامع القرويين**، ص 405 هامش 23)

- **كرسي الونشريسي**: يعد من الوجهة المادية أيضا من أثرى الكراسي العلمية وأغناها بالقرويين، ولذلك كان معروفا لدى الناس بكرسي القاضي... فقد وجدت من أحباسه إثني عشر حانوتا بالقيسارية والعطارين، وتسعة بالسبطريين، وستة بعين علون، وأربعة بالسقاطين، وسبعة بالصفاح، وأحد عشر عقارا، إلى ثمان وثلاثين بقعة موزعة في أهم جهات المدينة، يكون تسعا وأربعين عتبة، وهو قدر يقرب من "الثمانية والسبعين" الموقوفة على كرسي الورياكلي كما تقدم. [التازي، 380/2]

- **كرسي الإمام الورياكلي** (880 هـ) وكان من أهم الكراسي التي توالت عليها كبار الشخصيات، وكان هدفا لكثير من المنازعات. اشتهر هذا الكرسي بالعلوم والفنون وكان الإمام عبد العزيز الورياكلي الملقب بالصاعقة 880 هـ من أوائل من ارتبط تاريخهم بهذا الكرسي

ولا تتجلى أهمية هذا الكرسي في الوجوه اللامعة التي عرفها فقط، ولكن أيضا في الأوقاف المهمة التي كانت معينة لمن يستطيع التصدر له، ومن الجدير بالذكر أن نعلم أن سائر البقاع التي كانت محبسة على المرضى القاطنين ببرج الكوكب – وعددها ثمان وسبعون بقعة- كل ذلك استحال بعد تعطيل البرج فيما يظهر إلى كرسي الإمام الورياكلي، كما أن في جملة الأوقاف عليه نحوا من إثني عشر عقارا للذين يدرسون في الصباح، ونحوا من سبعة عقارات وبعض الأرحية لل 1ين يتصدرون له في الظهر، وزهاء ست بقاع لمن يتولى التدريس به في العصر والمساء. (عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، ج 374/2)

- **كرسي ظهر الصومعة:** خصصت أوقاف ليدرس عليه صحيح الإمام البخاري، واشترك مع كرسي المحراب في العقارات الموقوفة. وتعد هذه الأوقاف من الأهمية بمكان. [التازي، 377/2]

- **كرسي باب الشماعين:** عرفنا من أوقافه بعض الحمامات التابعة لممتلكات القرويين . [التازي، 376/2]

- **كرسي مستودع باب الحفاة** : كان من أوقافه أرحٍ بوادي العظام وعقاران آخران، وثلاث بقاع ومتجران. [التازي، 378/2]

- **كرسي ظهر الخصة**: يمتاز هذا الكرسي بأنه مقصود السماع من لدن فضليات المدينة وفقيهاتها اللاتي كن يشرفن عليه من الرواق الخاص بهن في مستودع ابن عباد. ويتمتع هذا الكرسي بثروة مهمة من العقارات والبقاع الموقوفة عليه. (التازي، 379/2)

- **كرسي العنزة**: عرف بدروسه في الفقه المالكي. ونعرف من أوقافه نصيبين من متجرين في المدينة بالإضافة إلى عدد من أنصبية فيس الدور والفنادق والحمامات. [التازي، 381/2]

عليها، خاصة إذا علمنا الوضعية المادية الهزيلة التي كان يعيش عليها هؤلاء قبل تسلمهم لهذا المنصب، حسبما جاء في الشهادة السالفة الذكر.

ومن أهم ما نتج عن رصد الأوقاف على الكراسي العلمية ما يلي:

- ازداد عدد الكراسي وانتشارها بشكل واسع في العصر السعدي.

- ضمنت هذه الكراسي العلمية، فضلا عن النباهة والجاه، موردا معاشيا مهما خصوصا إذا تعددت لدى المدرس مثل أحمد المنجور الذي كانت الكراسي العلمية مورد عيشه الوحيد، لأنه لم يتول قط القضاء والفتيا ولا خطابة، وظل يدرس على كرسيه إلى مماته[155]، كما أن لإيرادات هذه الكراسي لم تكن متشابهة ولا متقاربة، بل كان بعضها يزيد ضعفا أو أضعافا. وكانت كراسي أحمد المنجور، نظرا لطول باعه ومكانته في الدولة، من ذوات المردود الجيد، فتسابق العلماء بعد وفاته لاستبدال كراسيهم القديمة بها، متطارحين في ذلك على أحمد المنصور، وولي عهده المأمون[156]

- انعكاسات تدهور الأوقاف على الأوضاع التعليمية:

بعد مقتل أبي عنان سنة 759 هـ تعاقب على العرش المريني أربعة عشر ملكا في مدة قصيرة لم يكن من بينهم من يطمئن على نفسه أو يستطيع إعادة الطمأنينة إلى البلاد،،، فبدأ الوقف يتراجع لوقوع خلل في دعائمه المعنوية والمادية والسياسية، وذهبت الجهود التي بذلها ملوك بني مرين للنهضة بالوقف وتنميته سدى، وتقلصت رباعه وتعرضت للتبذير في الفترة المضطربة التي تلت وفاة أبي عنان. والمصدران الأساسيان المعتمدان في استقصاء بعض مظاهر هذا التراجع هما "المعيار المعرب" للونشريشي، و"وصف إفريقيا " للحسن الوزان، المعاصرين للفترة. فقد كثر الإنفاق من مداخيل الأوقاف على جهات غير الجهات التي حددها المحبس [157]، ولعل ذلك يرجع إلى صعوبة تنفيذ شروط المحبسين[158]، بل هذا الشرط ساهم في فراغ بيوت بعض المدارس [159]، كما يسجد "المعيار" حالات كثيرة لإتلاف الأوقاف وهدمها [160] وإهمالها [161] وسوء استغلالها، وتطاول الملوك عليها[162].

وانعكس تدهور الأوقاف على الأوضاع التعليمية بشكل سلبي، منها تعرض الكتب المحبسة لمشاكل أهمها تحبيس كتب مزورة على المساجد مثل كتاب "يسمى إسلام أبي ذر في سفرين كله زور وكذب وكتب كثيرة تشبهه" [163]، وتحويل المدارس إلى بيوت للسكن أدى إلى اختفاء أو تناقص مراكز التعليم [164]، وكره العلماء لشروط المحبسين بسبب تعقيدها [165]، مع وجود أساتذة جاهلين بالفقه [166]، ومشاكل أخرى مرتبطة بوقت

---

[155]- محمد حجي، **الحركة الفكرية**، ج121/1

[156]- نفسه

[157]- **المعيار**، 7/ 9

[158]- نفسه، ص 43

[159]- نفسه، ص 86 (سؤال طرح على الفقيه أحمد القباب)

[160]- **المعيار**، 7/ 238-239، 198-199

[161]- **وصف إفريقيا**، 1/ 81-101-102

[162]- **المعيار**، 7/ 236

[163]- **المعيار**، 7/ 111 (سؤال طرح على الفقيه الحفار)

[164]- نفسه، ص 262 (سؤال طرح على عبد الله العبدوسي)

[165]- نفسه، ص 43 (سؤال طرح على الفقيه محمد بن مرزوق)

الدراسة[167] وتقسيم المرتبات على المدرسين [168]، مع تدهور الوضعية التي أصبح يعيش عليها الطلبة [169]، وتحول بعض الخزانات إلى أقفاص للدجاج والحمام [170]، فتدهورت الوضعية الثقافية عامة كنتيجة حتمية [171]، وأصبح القرن التاسع الهجري الذي يتزامن مع فترة الحكم الوطاسي، قرن ركود فيما يخص التعليم، كما وصفه بحسرة الحسن الوزان.

***

ويستدل من مختلف القرائن المصدرية التي اعتمدناها في هذه الدراسة على أن الأوقاف كانت أهم مصدر لتمويل التعليم في بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، حيث اهتم السلاطين المرينيون والسعديون ببناء المؤسسات الوقفية الاجتماعية إلى جانب المؤسسات الدينية والثقافية. ولم تعد المؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس وزوايا تكتفي بتمويل نشاطها التعليمي بهبات مباشرة من بيت المال، بل أضحت موارد الأحباس أكبر دعامة لاستمرار المؤسسات التعليمية في القيام بواجبها وإشعاعها الحضاري والفكري. وذلك من خلال تحبيس الخزانات العلمية على الجوامع والمساجد، وعلى طلاب العلم، وإحداث كراسي لتدريس مادة معينة يتقاضى المكلف بتدريسها راتبا من أوقاف محبسة لهذا الغرض من طرف الحكام أو من طرف الرعية، ومن خلال تحبيس الكراسي العلمية. فلا تكاد تجد مدرسة ولا مكتبة بالمغرب المريني والسعدي إلا ولها أوقاف خاصة يصرف ريعها في الإنفاق عليها ، مما بوأ الأوقاف لتكون أكبر دعامة في **تمويل التعليم** واستمرار المدارس وإشعاعها العلمي، فبفضله الوقف نشطت حركة علمية منقطعة النظير، وفرت للطلبة علما ضخما وتراثا وظروف عيش مواتية دفعت بهم إلى التفرغ لطلب العلم.

[166]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، 1/ 104
[167]- الونشريسي، 7/ 353354 (سؤال طرح على الفقيه عيسى الغبريني)
[168]- نفسه (سؤال طرح على الفقيه عيسى الغبريني)
[169]- نفسه، ص 342، الحسن الوزان، **وصف افريقيا** 1/ 179
[170]- الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، 1/ 106
[171]- نفسه، ص 77